K H A L I L   A L - N E I M I

TRAVELS

خليل النعيمي

الطريق إلى قونية





خليل النعيمي

الطريق إلى قونية



الطريق إلى قونية / رحلات
خليل النعيمي / مؤلف من سورية
الطبعة الأولى، آب، 2015



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة، شارع ميشال أبي شهلا، متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص. ب 11-5460، الرمز البريدي 2190-1107، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الإلكتروني: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157، عمان 11191 الأردن،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 5685501 6 962+
info@airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفني:
® عمان، هاتف 95297109 7 962+
صورة الغلاف الأمامي: **ضريح مولانا جلال الدين الرومي** / قونية، تركية.
الصف الضوئي: **المؤسسة العربية للدراسات والنشر** / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعي: **ديمو برس** / بيروت، لبنان

ISBN 978-614-419-589-5

إلى «حمد الـنعيمي» أبي الذي كان

«أكثر من طريق تقود إلى الله ،

واخترتُ أنا طريق الرقص والموسيقى» .

ـ جلال الدين الرومي ـ

إبْدُ كما أنتَ ،

أو كُنْ كما تبدو

– الرومي –

مقدمة

كلام الانسان جزء منه

ـ الرومي ـ

السفر حكاية .

الحكاية هي التي تسافر .

تذهب بعيداً وتعود . تعود جديدة ، حتى يصعب التعرُّف عليها في مكانها الذي ابتدأها . لكأنها لم تنشأْ هنا ، ولم تكبر .

وهي عندما تعود ، تكون قد تغيَّرَت كثيراً ، مثل طفل ضاع منا رَضيعاً ، ووجدناه كهلاً . تكون قد امتلأت بحكايات كثيرة أُخرى أنجبَتْها على مَرّ السنين . حكايات لم نكن نحلم ، نحن الذين ابتدعنا أمها الأولى ، بأنها ستوجَد يوماً ما .

لكنها ، أحياناً ، تستقر .

إنها ، مثل المسافر المتمكّن من فنّ السفر ، قد يقيم في أرض لم يكن يظن أنه سيقيم فيها ، ذات يوم .

فالحكاية كالكائنات تَهْوى الإقامة في الأمكنة التي تحبها . والأمكنة التي تحبها هي التي تغذيها . تزيدها متعة

وغواية . تجعلها ذات اشعاع متألّق . تمنحها أبعاداً ما كانت تحلم بها في أرضها الأولى .

وهي ، مثلنا ، تماماً ، تهرم ، ويخفتُ ألقُها ، وتموت . وعندما يحدث ذلك ، يخلفها أبناؤها وأحفادها الكُثُر الذين يكونون قد انتشروا ، من قبل ، في أذهان البشرية ، بما فيها تلك الغريبة عنها لغة ومعتقداً .

لكنها غالباً ما تظل حيَّة حتى بعد أن يَفْنى الذي تصوّرها لأول مرة . وتظل تسافر حتى بعد أن يستقر مبدعها في مكان ما .

فالحكاية لا أرض لها .

ولكن ، مَنْ هم «مبدعو الحكايات» ، أولئك الذين يجعلون حياتنا أقل قسوة وبؤساً؟ أوَليسوا هم التجار ، والمحاربين ، والغزاة ، والبَحّارة ، وأصحاب القوافل ، وكل مَنْ «مشى في مناكبها»؟

حكايات العالم ، كلها ، مليئة بآثارهم ، وتشهد على حركتهم العظمى التي لا تهدأ . تلك الحركة التي لم تكن الحكاية غايتها ، أصلاً .

ليس غريباً ، إذن ، أن يكونوا ، كلهم ، تقريباً ، من المسافرين . من الرُحَّل . من الناس الذين لا يفهمون العالم ، ولا أنفسهم ، إلا بالانتقال . الانتقال من مكان إلى مكان ، ومن حال إلى حال .

فالسفر عندهم نوع من «المقارنة الابداعية التي ترويها حكاية» . مقارنة بين الكائنات المختلفة ، وظروفها الأشدّ اختلافاً ، على بساط من الأرض . و«بساط الأرض» هو موئل الأفكار والأحداث والمعتقدات . فهي لا تتصارع إلا فوقه ، ولا تتصالح إلاّ عليه .

الحكاية ، إذن ، هي «فلسفة الحياة الأولى» .

عظَمَتُها تأتي من كونها «حدثاً ثانوياً» لم يكن مخططا له ، من قبل . فهي لا يمكن أن تُتَخَيَّل مكتملة ، دفعة واحدة . ولذا فهي«إبداع حر» يتنامى تدريجياً ، ويتغيّر ، أو يتطوّر ، بلا توقّف . ويمكن له أن يأخذ ما لا يحصى من الأشكال ، ويحمل ما لا يحصى من العواطف والاضطرابات ، ويلجأ إلى ما يستهويه من الحِيَل والأفانين ، حسب ما تقتضيه أقانيم السَفَر .

إنها الثانوي الذي سيصير ، منذ أن يوجد ، أساسياً . لأن الضرورة هي التي أنتَجَتْهُ : ضرورة الزمن .

زمن السفر الذي لا تملؤه إلا الحكاية .

بدايـــة

العالم إصباح وإمساء وما بينهما ساعات .
وصبح باريس معتم من شدة الليل .

الحياة .

الحيـاة المرتبكة التي نحـيـاها فـرضت علينا نظامـاً نهـارياً بامتياز . نظام قاحل ومديد . لكأن الضوء مرادف للوجود . وقبل الضوء الظلام .

أحس بشـعـور مـغـاير هذا الفـجـر . ومنذ أن أصـفق البـاب خلفي ، تستـقبلني نَثَرات ثلج باريس الشتـائي اللطيـفة . تَخُرُّ على وجهي العاري بنعومة وكأنها الحرير . وأبدأ المسير . إلى أين أيها الكائن المتوتر مثل دَفّ قديم؟ إلى «قونية» يا أبي ، أنسيتَها؟ أنسيتَ كيف كنتَ تحكي لي في صحرائك القديمة عن «قونية» و«حُويْزية» ، عن «السيّاد» والدراويش؟ عن الزمن المضيء مثل قنديل مـعلّق في الريح؟ ولم أكن أدري «مَنْ» كـان هناك ، ولا كـيف هي حـاله ونواياه . كنتُ أحب «الاسم» واسـتـمـتع بالكلمات ، دون أن أهتم بما خلفـها من «أوهام» . كنتَ تحكي ،

وصرتُ أحبها وكأنني أحيا فيها .

أنا لستُ ذاهباً من أجل «جلال الدين» ، ولكن مدفوعاً بصوتك القديم الأسمر ، صوت «حادي العيس» الذي يحكي برهبة عن «قونية» التي لم يكن قد رآها ، أبداً ، من قبل . المعرفة ليست زيارة جغرافية ، إذن ، وإنما هي التمثّل العميق لمآثر الكون ، حتى لتلك التي لم نعرفها . وهو ما يجعلني أتصوّركَ ، الآن ، مُفارقاً لي : أنا ذاهب ، وأنت كنت آيباً من هناك ، دون أن تبرح مكانك .

أنا ذاهب لأرى ، وأنت كنتَ آيباً من هناك ، من فكرتك الجميلة عن مكان كنت تحسبه جميلاً . أيكون كذلك؟ وما تهم الإجابة في الوجود ، وهي ليست أكثر من «كذبة» نصطنعها نحن لئلا نشعر بالعدم المرافق لأفعالنا؟ أولسنا نقضي العمر بحثاً عن «امتلاء» لفراغنا الانساني الذي لا يمتليء ؟

إلى «قونية» ، يا أبي . ولكن ، تراني أخاطب مَنْ في هذا الفجر المشتمل بالبرد؟ أنتَ ، أم مَنْ كان هو وراءك؟ تذكَّرْ نُجودنا في فيافي «الجزيرة» البعيدة ، في سهل «الذُرو» الشاسع كالعَيْن ، وأنت تمشي بين شُجَيْرات الحَرْمل والشيح والقَيْصوم ، مشَمِّراً عن رَبْلَتَيْك . بهدوء تمشي ، دون أن تلتفتَ خلفك ، مثل أسد مَلَّ من الافتراس ، فصار لَيِّن المراس . تمشي وتحكي مستريحاً ، لكأن الفضاء الخالي لا يمتليء إلا بالكلمات . تذَكَّرْ! كنت تمشي وتحكي ، وتحكي عنها ، عن «المزارة» التي كنت تحلم

بهـا ، هذه التي أنا ، الآن ، في طريقي إليـهـا . لَكَمْ أحب أن أُحقق أحلامك .

كنتَ تعرف منْ في «قونية» ، يا أبي؟ لا أحد ، بالتأكيد ، كما أعرف الآن . ومع ذلك ، كنت تعرفها بقلبك أكثر مما سأعرفها أنا بعينيَّ . كنت تحب مكاناً لم تره ، وترتعد لذكر مدينة لم تشاهدها ، وتحس بالإنس لمجرد ذكرى ساكنيها ، وأنا أفتقد ، إلا قليلاً ، كل هذا . ولكن كيف التقيتَ بكل هؤلاء ، واكتسبتَ كل ذلك الشغف بالمجهول ، وعشتَ كل تلك البهجة الصريحة ، وأنت لم تتجاوز حدود الصحارى الغارقة في الغمام؟ أيُغني الذكْر عن النَظَر؟ أم لكل منهما دوره الأساسي الذي يجعلنا نتَنَقَّل بينهما كما يتنقّل ساكن البيت بين غرفتين؟

كنتَ تعرف روحها ، إذن . روح «قونية» المحلِّقة فوق هضاب الأناضول ، مثل غيم يوعِد بمطر وشيك . وكانت أرض الجزيرة ، وكائناتها ، ظمأى . وظمأ الكائنات لا يرويه سوى غيوم الروح التي تمطر كلمات . وامتد الظمأ حتى الخَماد . وفي تلك السهوب الشاسعة كنتَ تتجوّل ، وحيداً ، جارّاً كونك الصغير خلفكَ ، باحثاً عن «جوهر» جديد للحياة الممتلئة بالضوء . في تلك السهوب التي لا يسمعك أحد فيها سوى الرب ، كنتَ تتمتم أُدعياتك المسائية ، وأنا واقف كالجرو الهزيل وراءك : «بجاه الغروب والنبي أيوب ، توَدّيني قونية وأتوب» .

عَمّا كنت تريد أن تتوب ياأبي؟ وأي حلم غَيْبيّ كان يبلبل خيالك؟ وهل يتوب الأسد عن نَهْش فرائسه إلا إذا أراد أن يموت جوعاً؟

عرفتَها أنتَ كما يمكن «للحِسّيّ» أن يعرف .

وعرفتُها أنا من كلامك .

أوف! للقلوب أسبابها للمحبة ، وللعيون أسبابها للنظر . لكنني سأنظر اليوم بعيون أربع . سترى معي . سأجعلك ترى معي ، وكأنك لا زلت واقفاً على قدميك فوق تلال الجزيرة الحمراء . هل تذكر يوم كنت تتغنّى ، بصوت خافت ، في العُصَيْر ، وأنت تُقْعي مثل طير كبير ، فوق «تل غزال» الترابي الهائل ، دون أن تعرف أنه كان مدينة عامرة ، ذات يوم؟ ولربما كان توأم «قونية» نفسها .

يومها ، كنتُ خاتلاً وراء حِسِّكَ ، وبحياء أرى إلى دموعكَ تجري على خديك السوداوين ، وأنت ترتّل قرآنكَ :

رقيت أنا َمرْقى طويلا عالي / تحدَّر دمعي مثل مزْن أمطارْ
دحّقْت شرقا وغربا نحو الشمال / هاجتْ عليَّ هموم قلبي كثارْ .

كنتَ تحكي ، مُسَلِّماً على الكون ، ذلك الصباح ، قائلاً بصوت جهوري : صباح الخير ، أيها العالم . ولما رأيتني مأخوذاً ، ابتسمتَ لي بحنان وأنت تردد بصوت أليف : فوقها كأنني فوق غيم ، تلال الجزيرة الحمراء .

وأشرتَ بيدك الطويلة إلى نُهود الأرض المتكوّمة فوق وجهها منذ الأزل ، وبدأتَ تعدد الثنايا والبقاع ، طالباً مني أن أراها : دَحِّقْ! ذاك هو تل بيــدر ، وذاك تل براك ، وذااك تل السنجق ، وذاااك كِـرْ خـالد ، وهناك تل غـزال التـحتـاني ، وهنااك تل حرْمَل ، وهنااااك تل حَلَف .

وبعد تنهيدة عميقة ، ولحظة من الصمت المريب ، أشرت من جديد ، وأنت تردد الكلام في صدرك : ولا تنْسَ التلال البعيدة الأخرى ! ونظرتُ ، ولم أرَ ظلاً . أما أنت فكنتَ تراها من خلال السمت ، وأنت تنظر إلى الشمال .

كنتَ تتكلم وحيداً ، وكأنك أُلوف . و كلام الانسان جزء منه ، كما يقول عَشيرُكَ الذي لم تره ، ساكن «قونية» : جلال الدين الرومي ، مولانا ، قدس الله سره .

وكأنني أسمعكَ تقول : في السفر تبحث النفوس عن أهوائها . تتابع البحث عنها بعد أن أضاعتْها في زحمة الحياة . آه! أيها الوجود المفعم بالأشاغيف .

وأغمض عينيَّ عن الحشد الذي بدأت تغصُّ به الطائرة ، وأتابع المشي وراءكَ في الحَمــاد . تمشي ، وتقف ، وتُسـولف . تحكي عن كل شيء تراه ، وكأنه يخصُّكَ وحدك . تُقْعي على الأرض لتَشْلَعَ نبتة البصل البري الذي نبغ من بطن القاع للتوّ ، مُسَبِّحاً : سبحان من أنبت النخل وسَوّاه . وأحسبُ أنا أن كل نَبْت هو النخل . وأصـيـر أتعـجّب من اخـتـلاف أنواعـه ،

وأشكاله ، وألوانه ، ومذاقه .

سأصل بعد ساعات إلى جهة أخرى ، وسأتذكَّر ، استعيد بالأحرى ، قولك الأثير : سبحان مَنْ نقلنا من مكان إلى مكان . وكنتَ تضيف متحَسِّراً ، ولستُ أدري على ماذا ، فلم تكن تملك إلا قدمَيْك : هذه الدنيا لا مكان لأحد فيها .

وكنتُ أقف في مكاني محاولاً التشبّث به ، باحثاً ، عبثاً ، عن صوتكَ الذي يَلْتَفُّ حولي ، لأنك تكون قد ابتعدت في أوائل الظلام . وهو ما كان يضطرني إلى اللحاق العاجل بكاحلَيْك .

كنتَ تجرُّ رَسَن فرسك الدهماء المحجَّلَة الثلاث ، وأنت تطعمها مما أنبتت الأرض بيديك . وفجأة ، تبصق قرفاً على القاع ، وأنت تُسَبْسِبُ : تفو عليكِ يا هذه الدنيا . ماذا تذكَّرْتَ في تلك اللحظة ، يا أبي؟ وأي دنيا أخرى تريد؟ أتدري؟

وعندما تراني أتعجّب صامتاً وقلقاً ، كنت تقول لي ، وأنت تربّتُ على شعري : الدنيا سَوالف . ولكنك لم تكن تعرف هوميروس ، ولم تقرأ ألف ليلة وليلة ، ولم تسمع حتى بتغريبة بني هلال ، ومع ذلك كنت تعرف ما لا يعرفه العارفون : «سر قونية ، وقداستها» .

كنتَ لا تكف عن الكلام عنها ، وكأنها ولدْتَ فيها .

الحياة تخلق حكاياتها ، إذن؟

أخيراً ، جاءنا الأمر بالإقلاع ، فأغلقْتُ دفتري ، وأغمضْتُ

عينيَّ ، واستسلمْتُ للحركة الارتجاجية التي بدأتْ تغزوني .

عندما صارت الطائرة في الجو ، اختفى الوَمْض الذي كان ينذف في رأسي ، وتلاشى الفَيْض الانساني الذي غَمَرني بحرارته القديمة . لكأن للأرض استطالات حسّية تحرِّكُ بها أهواءنا كما تشاء ، أو كما تشاء الأمكنة .

«قسوة الحياة» صارت كلها رِقَّة . متى نضع أقدامنا على الأرض؟

الهبوط

لا يُقابل الفجر في «باريس» إلا المساء في الأناضول .

الأرض المتخَشِّبَة من كَثْرة الهضاب تُمصُّ رَطَب السماء الواطئة المحتقنة بالغيث ، وكأنها تتَمَلَّح بها . على بعد مئات الأمتار من النَظَر ، فقط ، تلتصق الأرض بالسماء ، ويغدو العالم واحداً . هذا الاتحاد الصاعد هو الذي يعطي الأناضول أسطورتها الأولى . حتى الغيم ، هنا ، له شكل آخر .

بين المطار و«أنقرة» سأحس بأني تعَدّيتُ أكثر من قارة . شيء من الخمول اللامرئي يملأ الجو . خمول مشحون بعاطفة إنسانية لا يمكن الامساك بها . أحب هذه الأرض . الأرض الشرقية ، أم الأساطير والديانات . حتى «الغزو» ، حتى غَزْوُها يبدو له بُعْد آخر ، ومدارك أخرى : منذ «آغاممْنونْ» ، و«أوليس» إلى الآن ، حيث مَر ، أيضاً : الحثيون ، والفينيقيون ، والاغريق ، والرومان ، والفرس ، والعرب ، والسلاجقة ، والمغول . ثمة سحر يدفع الكائن للالتصاق بهذه الأرض ، منذ أن يراها .

لهضاب الأناضول معالم وأساطير . «فتنة جغرافية» تنبثق من ثراها . نوع من العلاقة الآسرة المقدسة تربط القلب بها .

وليست العين ، في هذه الحال ، إلا الدليل إلى السحر الخفي المنغمس في القاع .

أناضول ، أرضروم ، هضاب وأكمات ، وبشر صامتون . لكأنهم لا زالوا يتوقعون غزْواً جديداً لم يتأهبوا لمقاومته . عندما تكلمهم يقفون مذهولين قليلاً قبل أن يردّوا . لكأنك تنتشلهم من علاقة شبقية ، تكاد أن تكون انتهاكاً للمحرمات ، مع أرضهم . بسؤالك المجانب «للطريقة» ، طريقة التقاء الكائن بالمكان ، تحس أنك خَرَّبْتَ كل شيء .

مَنْ أنت حتى تلقي بسؤالك العارض وتروح دون أن يقنعك الجواب؟ الجواب الذي لا يملكه أحد فوق القاع . لكأنك لا تعرف أن السؤال الذي لا جواب له ، هو وحده الذي يستطيع أن يربط بين العابر والمقيم ، بين البرهة والأزل ، بين الرائي وما لا يرى ، كما أوحى به «مولانا» .

هضاب تليها هضاب : آسيا الصُغْرى . وفوق الهضاب مكتوبة تلك الأساطير . إذا استمرت الأرض على هذه الشاكلة ، فسأعتقد أن «قونية» هي التي صنعَت «الرومي» ، وجعلتْه جزءاً من ثرائها ، وليس العكس .

عندما يصل الكائن إلى أرض قريبة من قلبه يحس به يتمزّق بين التردد والحنين . فما لا نعرفه لا يشكل بالنسبة إلينا معضلة ، ولكن ، عندما نلتقي به ، ويملؤنا بشغف لم نكن نتوقعه ، يزيد وجودُه وجودَنا متعة ويكسبنا خبرات .

أما المكان الذي ألفناه ، وفارقناه ، والتقينا به بعد طول غياب ، فيشغلنا ، غالباً ، بما هو عليه دون أن يمتّعنا بمعرفة أو شعور مغاير للوضع .

المكان ، في هذه الحال ، هو الوقت الذي مر وقد تكدّس في أحشائنا ، فجأة ، قبل أن ينبثق بشكل قاهر من الظلمة إلى النور . لا لشيء ألا لنتأكد من أننا كنا هنا ، ذات يوم ، وإنْ زعمنا أننا لَمْ نَنْسَ هذا .

للمكان شغف وتضاليل . له علينا سطوة لا حدود لها منذ أن نحبه ، حتى وإنْ كنا نلتقي به أول مرة .

الوصول إلى «أنقرة»

«أنقرة» مدينة «نصف صحراوية» ، أو هضابية . إنها القاهرة بلا «نيل» . فضاؤها في أول الليل معتم من كثرة الهضاب التي تسَوِّرها . معتم وغريب . إنه مزيج من الأرض والسماء ، وقد تزاوجا . يرعبني هذا الفضاء المشحون بالسور والآهات .

أضع حقائبي في الفندق الصغير ، في قلب المدينة العتيقة ، وأخرج على الفور .

مثل قنفذ يمد رأسه خارج أشواكه ، بعد أن اطمأن ، أقف ممدود الجسد ، وعيوني تتملّى الليل المحيط بي كالبحر الهادىء . ليل «أنقرة» القارية الذي يدعوني للمسير . كيف لي أن أضع كياني في مكانه الصحيح من العالم إنْ لم أكن جديراً بمواجهة العتمة والتمتّع بها؟ أوليس المشي ليلاً هو أول مصدر من مصادر التعرّف على الذات ، وهو الفضاء الأمثل للالتقاء الصريح بها؟

أمشي . أتوقف . أتوجّس احساساً آخذاً بالانبهار . أمشي أنقرة في العتمة البادئة . أحب أن أكتشف المدن والكائنات ليلاً . الشوارع شبه مليئة ، والبشر بلا حضور . السيارات

العتيقة تتغالب مثل فئران خرجت للتوّ من مصيدة عملاقة .
إلى أين يذهب الناس في أول الليل؟ بعد ساعات من المشي البطيء أجد «السعادة» في وجهي : الدكان الصغير الذي غذّاني في «الحسكة» في أطراف «الجزيرة» السورية ، ها هو ذا في عينيَّ . ماذا يبيع الدكان القذر المبني من ألواح خشبية عتيقة ، ومن سيور الجلد؟ يبيع «المشبَّك ، والحلويات» . أوه! أيها الماضي السعيد لست ، إذن ، سوى قرص «حُلْوٍ» لم أشبع منه صغيراً .

أقف طويلاً ، والبائعة تَتَمَلاّني بهدوء . تكلمني وأنا بعيد . وأحسها تقول لمساعدها : «لا يفهم ما نقول» . ولم أكن فعلاً . بعد أن شبعتُ من النظر ، مددتُ أصبعي نحو القرص الأشقر الساخن الخارج للتو من أعماق الزيوت ، وقلتُ بلغة الإشارة التي يفهمها الناس كلهم : «واحد» . وعلى الفور استقر القرص المشبع بالقَطْر بين أصابعي ، محاطاً بورقة قاسية ، وبدأت ألتَهِم الشيء . ابتعدتُ وأنا أتلَمَّظ لاحساً شفاهي ، مثل قط أكل فأراً سميناً .

أكتشف أن اللذة ليست هي الذُرى البعيدة ، ولا الأشياء الكبرى ، وإنما هي الالتقاء العفوي مع فُتات حياة وَلَّتْ . حياة لم نكن نحسب ، أبداً ، أنها كانت ذات يوم كما نحسُّها ، الآن . أكتشف أنك إذا أردتَ البحث عن حياتك القديمة ، فماعليك إلا أن تترك المكان الذي عشتُها فيه ، أن تبتعد أكثر

ما يمكن عن الفضاء الذي تعتقد أنك ستلقاها في ثناياه . وليس ذلك لأن الفضاء بلا أبعاد ، ولكن ، لأن أبعاده التي نضفيها عليه هي التي تحجزنا فيه . أيه! أيها الأناضول العتيق .

وجوه «آسيا» ، كلها ، تتجَمَّع في «أنقرة» .

لكأن البَرّ الشرقي من بَلَخ التي كان اسمها «أم البلاد» ، إلى سمرقند ، فبُخارى ، إلى الأناضول ، مروراً بحلب ، والشام ، وعُبوراً ببغداد ، والموصل ، وأنطاكية العظمى ، تَلاقَى ، كله ، فيها . تلاقى ، واختلط ، وتلاقَح ، وتكاثَر ، وغَرَّب ، وشَرَّق ، وأنتج هذا الجَمْع الذي لا نظير له . صرتُ أحس أنني بين أهلي ومعارفي : أشكالاً ، وسلوكاً ، وهوايات . حتى سُنن الإغراء والمُلاحَحَة هي نفسها .

ما أجمل أن تمتزج الكائنات .

الفندق الذي أنزل فيه يقع بالقرب من ميدان «كمال أتاتورك» ، الذي يحتضنُ تمثاله . «أتاتورك» راكباً على حصانه ، وحوله الأكناف ، يتربَّصون بالظلمة شراً . أقف في أسفل التمثال زمناً طويلاً . أتملّى هيئته وقيافة الجنود الذين يحيطون به . ثمة أيضاً أمرأة وعمّال . في الساحة العالية ينتصب التمثال مسيطراً على فضاء أنقرة المدينة التي بعثها «أتاتورك» من النسيان . سأعود أكثر من مرة إليه . سأعود كلما خرجت من الفندق ورجعتُ إليه . أريد أن أفهم العاطفة السحيقة التي تملأ نفوس المتأمّلين له من عامة البشر . أريد .

بالقرب من الفندق ، وتحته ، على الرصيف المواجه ، سأكتشف ذات مساء المقهى العتيق على «الخابور» . مقهى صباي الشغوف بالمرائي والاضطرابات . المقهى المتكسّر الذي أصابَتْه النوائب والرضوض ، والذي يظل يقدم الشاي الساخن لزوّاره حتى بعد منتصف الليل . كنتُ أقف على عتباته المصنوعة من الزَلّ والتراب ، دون أن يأبه أحد بي . ومنذ أن أرى هذا سألجه على الفور .

قماش الطاولات الخشبية العتيقة من الأزرق الفاقع ، وأشكالها مربعة وشديدة الإطار . وعندما تتّكيء على واحدة منها ستحس أنها تهتز تحت ثقلك وكأنك فيل يطأ كوماً من القش . الكراسي المرصوفة حولها مصنوعة من وَبَر الخَيْزَران المجدول بعناية ، وكأنه صُنع للملوك . وفي منتصف الصالة العريضة تتربَّع «صوبْيا» من الطراز العتيق . لهبها أزرق ، ودخانها قوي الرائحة ، عليها يَتَشَلْهَب الرَبْع ، كما كان يفعل أبي ، وأمي أيضاً ، في صباحات الحَماد القارسة البرد .

المرعب في الأمر أن هيئات الخَلْق «سورية» محضة . وإذا أردت الدقة ، أقول : «أناضولية» . ففي الأناضول التقت الدنيا كلها منذ طوفان نوح ، ورسوّ سفينته على جبال «أرارات» . لكأني لم أبرح جَراديق «الحسكة» على «الخابور» . لكأن كائنات نهر «جَغْجَغْ» الشيطانية التي لم تكن تظهر إلا في أوائل العتمة ، وفي نهاياتها ، انتقلتْ فجأة إلى هنا .

أنظُرْ! صرتُ أخاطب نفسي : الرجل الذي قدَّم لي الشاي هو نفسه الرجل الفاحم القديم . ها هو نحيل ، رصاصيّ اللون ، مشعث الشعر ، عيونه تلوز مثل عيون قط يبحث عن طعام ، ثيابه وسخة ، وجلده مَحْميّ من البرد بطبقة من الشَّثَن والقذارة . أتَذْكر مَنْ كان كذلك؟ ألا يذكرك هذا الكائن البهرجيّ بمصلِّحي سيارات المازوت العتيقة في شارع «فردوسا» الحَسْكاويّ؟ الشارع الذي كنتَ تقطعه عشرات المرات كل مساء من أجل الظفر برؤية وجه امرأة عابرة؟

سيقدم لي كأْساً من الشاي المُخَمَّر والرحيق ، وهو يلاحق لاعبي الورق على الطاولة المجاورة . كنت أريده أن يتطلّع إليَّ علّه يري في وجهي وجهاً يعرفه . لكنه وضع الكأس واختفي مثل فأر صاد لقمة فعاد ، فوراً ، إلى غاره . ولأني أردتُ أن أراه ، طلبتُ كأساً أخرى ، وضعها أمامي وهمّ بالإنصراف ، فاستوقفْتُه ، سائلاً بالعربية : «هيكل»؟ وأجاب وهو ينظر في عينيَّ بلامبالاة : «أتاتورك هيكل»؟ رأيت شكله من قريب وعينيه ، ولم يعد يهمني الباقي . كنت أعرف أن التمثال في التركية يسمى «هيكل» ، وأنا أسكن بالقرب منه .

يلعبون الورق بحماسة وعنف : أخوتي وآبائي ، أصدقائي القدامي الذين لم أعد أراهم . وما أبأس الكائن الذي يفتقد الرؤيا! ولن ينظر إليَّ أحد منهم ، حتى وأنا أكتب عنهم . وبدأت أُدَمْدِم : «فليلعب الأولاد ، فليلْعبوا»! لكأن امتصاص

وجود الآخر المماثل لنا، منذ أن يحل بيننا، أمر طبيعي، ولا جدوى منه، مع أنه يشكل محنة إنسانية كبرى. لكن لا أحد يفتح رأس الآخر ليرى ماذا يملؤه.

الانقطاع عن التاريخ، إذن، لس صدفة، ولا يتم بشكل عفوي. وهو لا يحدث إلا إذا أردتَ أن تتجاهل تاريخك الشخصي قصداً. وهي الحماقة التي لا جدوى منها. أما أنا فلم أكن يوماً أكثر سعادة مما أنا عليه الآن. تاريخي هو حياتي. ويسرني أن أكتشف أنها كانت واقعاً ذات يوم. فليلعب الأولاد، فليلعبوا.

عندما نحكي التاريخ، يغدو التاريخ شيئاً آخر.

يمكن لنا أن نعطيه معنى مختلفاً تماماً عن المعنى الذي كان يحمله من قبل. وربما كان هذا هو ما فعله هوميروس «بحروب طروادة»، وشهرزاد في «ألف ليلة وليلة»، وراوي «تغريبة بني هلال» بالتغريبة، وحَكّاء «مهاراباتا» الهندي بحكايته، و«جلال الدين الرومي» بقصة «شمس التبريزي»، مثلاً، لا حصراً. وفيما يتعلّق بي وبتاريخي: لا أريد أن أفعل هذا.

أريد أن أحبّه بعد أن كنتُ أخاف منه.

الجمعة ١٤

كنتَ تسوق الإبل لاحقاً بالظعون ، وأنتَ تردد : «ياشا ، ياشا ، مصطفى كمال باشا»! هل تذكر ذلك؟ هأنذا أقف الآن تحت تمثاله البرونزي ، يا أبي . وأكتشف أن الإنتماء ، إنتماء الكائن ، إما أن يكون كونياً أو لا يكون . إنتماء لا يخص الإنسانية ، هو ليس شيئاً آخر سوى النكوص . النكوص إلى قبر الوعي الأسود الذي لا يؤدي إلا إلى العدم .

تحت التمثال ، تماثيل أخرى صغيرة ، تكشف عن عمق مأساة الكائن الذي يكتشف ، فجأة ، ضراوة العالم وحقارته . يكتشف التهديد المستمر للوجود حتى بأبسط أشكاله . وحدها ، الحمائم البائسة ، تجثم في ضوء الشمس البادىء في أنقرة ، وهي لا تجرؤ على الحركة من شدة البرد . بماذا تفكّر هذه الكائنات الرابضة مثل أسود لم تعد تقوى على القَنْص؟

من «إيلوس» إلى «كيزيلايْ» سأمشي «أتاتورك بولفاري» الغامض مثل صحراء بلا أفق ، مرة على اليمين ، ومرة على اليسار . أمشي مشغوفاً من شدة التعلّق بالعالم الذي أمشي فيه ، ومن حب الذوبان في فضائه . أنسى مَنْ كنتُ ، ولا

يهمني مَنْ سأكون . المهم هو أن قدميَّ لا زالتا تستطيعان المسير . أبحث عن أسرار لا أعرف عنها شيئاً . أسرار لا بد وُجدتْ ، هاهنا ، ذات يوم . وأكاد أريد ألاّ أعرف . وما جدوى المعرفة في فضاء يتموّج الحس فيه مثلما يفعل البحر عندما يهيج؟

«إرادة الجهل» المرغوبة ، هذه ، والمخطط لها بعناية ، ربما كانت هي وراء ذلك الشغف السامي الذي يدعيه المتصوفة الكبار ، والراغبون بالاتحاد بالمجهول (انتبهوا بالمجهول ، وليس بما يعلمونه) . فهي كل ما يتبقّى للكائن عندما يضيع منه «كل شيء» ، أو بعد أن يصر على «تضييعه» . ومع ذلك ، فأنا لا أبحث عن المطلق ، وإنما عن النسبي .

ولكن كيف يمكن التمييز بينهما؟

يمشي بسرعة ، متوجِّساً ، ومتأهّباً لكي يقف في أية لحظة : الأعمى . وأنا أسير متباطئاً ، وكأني خرجتُ من غار مظلم ، للتوّ . هو ينظر إلى الداخل ، وأنا امتليء بالخارج ، مثل أسفنجة تمتليء بالماء .

مشكلة العَين الناظِرة هي الاستدارة ، هي الدورة التي تخطف البصر لكي ترسله إلى الأعماق . وهي عندما تفعل ذلك تجعل قلب الكائن يتفتّح مثل زهرة بتأثير النَدى . يتفتّح ليستقبل أحاسيس الوجود الجميلة ، وعلى رأسها الحُب . وحين ترافق الموسيقى كل هذا ، نبدأ ، عندها فقط ، بإدراك معنى

الشَغَف الذي سيجعلنا ندور . ندور الأرض بحثاً عنه (عن الحب ، أوعن مصدره الذي اختفى) . أقصد ندور في مكاننا ، باعتبار أن «موطيء القدم» هو مركز الأرض التي نقف عليها .

في «أنقرة» أنتَ في عالم آخر . عالم مختلط الأجناس بشدة . ولا بد أن ذلك يعود إلى الأزل . إلى العهد الذي رستْ فيه سفينة نوح على جبل «أرارات» القريب من هنا ، وفيها «من كل زوج اثنان» .

البشر في «أنقرة» خليط عميق ، وثقيل الخطو ، وكأن الأرض لم تخلق إلا ليكون هو عليها . خليط صامت حتى وهو يتكلم . لَمَنْ تُخبّيء هذه الرؤوس أصواتها ونَواها؟ ومَنْ عساه يظفر بوَجْدها ، ذات يوم؟ من أين تجيء هذه الثقة الأزلية بالذات ، عند هؤلاء الصامتين ، إنْ لمْ يكن من «كتاب الحكمة» الانساني الذي أبدعتْه هذه الطبيعة؟

الحثيون ، والفينيقيون ، والاغريق ، والرومان ، والفرس ، والمغول ، والسلاجقة ، والعرب ، وأقوام كثيرة أخرى ، اختلطوا كلهم هنا ، وتعايشوا تحت «سلطة الحياة» . وهنا خلّفوا هذا المزيج البشري الرائع . أنظرْ! لهذه الفتاة أنف مغولي ، وعينان عربيتان ، وثغر روماني ، ولُحْمَة آسيوية ، ولها دلال اغريقي خالص . قارات عديدة تجامعَتْ لتخلق هذه الكائنات التي لا حدود لخصائصها . خصائصها التي «تخلب الألباب» كما يقولون . وأحياناً ، أحب ما يقولون . فاللغة مثل الكائن إذا

جَرَّدْته من لُـحْمته لا يبقى فيه سوى العظم ، وسيفقد أبَّهة وجوده ، ويتسَطَّح .

«أنقرة» جافة مثل بؤرة ثلج . وبين الخطوة والخطوة عليكَ أن تلجأ إلي «دكان شاي» قريب . وهذه الدكاكين نوع من المقاهي الصغيرة الحديثة التي تلبي الطلب بأسرع ، وأسهل مايمكن ، وبسعر معقول . يؤمّها الأتراك والسوّاح معاً . ولا فرق بين عابر أو مقيم إلا «بالعملة» .

في هذه المدينة الغريبة الشأن والمزاج ، سأستحضر «تاريخي الشخصيّ» كثيراً . استحضره منذ أن شعرتُ أنني «أتلاشى» بين مَنْ هُمْ مثلي ، تماماً ، وأنا من «بادية الشام» . أنا القادم من أعماق الصحراء العربية ، أقف طويلاً في وجه الفضاء الأناضولي . أتملّى البشر الذين لا يكفون عن التوارد والاتصال . أحسّهم يُنْعِشون في نفسي أعمق الأحاسيس والمشاعر والانشغالات . يُعيدون رَبْطي بأبي ، ويشرحون لي أحوال أهلي الذين لم أعِ من أحوالهم شيئاً ، يوم كنتُ بينهم .

أوه! أيها الأناضول الذي لا يُخفي عن أحد أساطيره .

ما يدهشني هنا هو صمت الكائنات التي تظل تمشي بكبرياء ، وكأنها لم تعد تستطيع أن تتوقَّف . وعلى عكس أوربا ، والعالم العربي ، أيضاً ، لَمْ أَرَ استياء على وجوههم ، ولا تذلُّلاً في هيئاتهم ، ولا توتُّراً مجانياً مثل الذي نراه عند كثيرين منا مع أنهم لم يروا من الكون إلا أظافر أقدامهم . صامتون؟

نعم . ولكن بلا حَسَف أو ندم . وإذا ابتسمْتَ لهم ، يبتسمون لك على الفور ، وهم يرددون : أفندم!

في المساء سأرى ما لم أره في الصباح .

ضوء الغروب في أنقرة يجعل الفضاء أسود ومربدّا . يضفي على الأمكنة هيبة غُروبية تثير في النفس شجناً واستجابات . في السفر يمزج الكائن بين أمرين : تاريخه الشخصي ، وكينونة العالم . وهنا لا حاجة للإنفعال ، ولا للإفتعال ، لأنهما ممتزجان بشكل عفوي ، ومنذ عصور سحيقة .

هذا الامتزاج التاريخي العميق يقلب المعادلة : يجعل المسافر يحاول فرز الأمرين أحدهما عن الآخر ، أو تخليص الأول من قبضة الثاني : التاريخ والكينونة . ولأن ذلك يبدو غير ممكن في حالة غروب مثير مثل هذا الغروب الاسطوري ، فإنه يستسلم ، في النهاية ، لرُؤاه وتهيّجاته ، مُتابعاً ، في الوقت نفسه ، اصراره على أن يتقاسَم برهة الحياة العابرة ، هذه ، مع العدم (الذي هو الماضي) من أجل ألاّ ينساه مرة أخرى .

عند أهالي أنقرة يذهلني الصمت والنظام . لكأنهم خرجوا ، للتو ، من تدريب عسكري قاس . تدريب لا يقبل الثرثرة ولا الابتذال . وأتصوّر أن الهضاب الأناضولية التي لا حصر لها ، المحيطة بالمدينة ، والتي على سفوحها ترتسم سمات الخلق الأناضولي ، هي العنصر الحاسم في هذا السلوك الصامت المتهيّب . سلوك يختلف كلياً عما رأيته عند أهالي

«اسطمبول» ، مثلاً ، حيث الضجيج هو الفعل الأساسي في حياتهم اليومية ، حتى ولو لم يكن ضرورياً . وربما لأنه كذلك ، كما هي الحال في القاهرة .

صمت «الأنقَرَويين» صمت مغولي . مشيتهم بلا حسّ مثل مشية ذئاب جوعى . عيونهم تراكَ دون أن تنظر إليكَ تحديقاً . نساؤهم خفرات مع أن الحِسّيّة تَقْطُر من أعطافهنّ . عندما يمرون بك يَهُمّون بأن يسلِّموا عليك ، وكأنهم عرفوك ، ذات يوم ، في عالم آخر . عالم أَلْفِيّ مرَّ من هنا ، وكنتَ فيه ، أوكانوا هُمْ هناك . وقبل أن يبدؤوا السلام يختبئون تحت رموشهم الطويلة الفتّانة ، وهم يبتعدون . «أنقرة» ، على عكس الانطباع المتسرع ، ليست مدينة حديثة . ذِكْرُها يرد في التاريخ منذ منتصف القرن الثاني ق .م . كان اسمها «أنْكُواشْ» ، وكانت مركزاً أساسياً في قلب منطقة زراعية شديدة الخصوبة .

استوطنها الحثيون ، والليديون ، والفرس ، وحتى الغول ، أو «الغالات» ، حيث سمِّيَت المنطقة باسم إحدى قبائلهم : «غالاسي» . وفي العام ٢٥ ق .م . ضمَّتْها الامبراطورية الرومانية إلى ممتلكاتها ، وشيَّدت فيها الكثير من آثارها .

وفي العام ٥٠ ب .م . أقام فيها القديسان : سان بول ، و سان بيير ، وهما من حواريي» غالاسي» ، وقد جعلا منها أول مركز للمسيحية الشرقية .

سيخمد ذكرها ، وتكاد أن تُنْسى ، بين القرن السابع ،

والخامس عشر الميلادي ، وكانت في هذه الفترة تسمى «أنقورا» .

تعاقب على غزوها أقوام وديانات إلى أن استحوذت عليها الامبراطورية العثمانية عام ١٤١٤ (أوائل القرن الخامس عشر) .

لكن أهميتها الحديثة ستقترن باسم «كمال أتاتورك» الذي التجأ إليها عندما تفتتت الامبراطورية العثمانية ، وجعل منها عاصمة للبلاد . وكان ذلك يوم ٢٣ أبريل/ نيسان ١٩٢٠ .

استعيد هذه النقاط السريعة من التاريخ ، وأنا أفكّر :

أي غباء مُسْتَحْكِم فينا ، يجعلنا نعتقد أننا سادة في الكون ونحن لا شيء تقريباً!

متى نتحرر من اسلابنا؟

ويخطر لي : أن الكائن قبل أن يستوعب تاريخه يَفوت (أقصد التاريخ) . وعندما يصل إلى نقطة الإدراك ، هذه ، إنْ وَصَل ، يكون كل شيء قد مر .

الحماقة ، وحدها ، هي التي توهم الكائن بأنه قادر على أن يفعل مِمّا/ ولما مضى شيئاً . فما حدَثَ لا يحدث مرتين . ولم يكن من الممكن له أن يحدث بشكل آخر . وهو لا يُسْتَعاد . ولا يمكن اصلاحه . وهذا هو تماماً معنى العبث في الوجود .

السبت ١٥ ديسمبر.

تنهبني التاكسي كالبرق إلى «آشْتي» ، المحطة الرئيسية للمواصلات البرية إلى عموم تركيا . أريد أن أسافر إلى «قونية» ، براً . أريد أن أهبط الهضاب الأناضولية التي بدأتُ أتخيّلها مثل كرات ذهبية مُلَبَّسة بالأخضر الفاهي ، في أول هذا الشتاء الجميل .

في المحطة العظمى خلق ونُثار . جموع من البشر البني والفضي الذي يوحي بأن لا قيمة للعجلة في الحياة . يتجمهرون وكأن ثمة حادثاً خطيراً قد حدث للتو ، وليس في المكان سوى الخلاء . لا أحد ، لا كلام ، ولا حتى اشتباه بأن ثمة ما سيجري حدوثه بعد قليل . إنها الحياة الملفوفة بالهضاب ، المقصية عن أُطُر الوجود الذي خلَّفْتُه في باريس .

يتحركون بتُؤدة وكأنهم في حَلّ من أمور الدنيا . لكأنني أنا المسافر الوحيد في هذا العالم الأسطوري الذي خاض المعارك والحروب ، والذي قَلَب العالم على رأسه ذات يوم . عليَّ أن أتبصَّر ، إذن . هؤلاء بشر آخر غير الذي كنت أراه في باريس .

وأكاد أقترب من اللوم وأنا أتخبَّط متسرعاً في طريقي .

هم يتوافدون بهدوء مثل مدعوّين إلى وليمة لم تكتمل عناصرها ، بعد ، وأنا أتعاجل مثل يتيم يركض خلف الظُعون . يتهادون محمَّلين بكآبة سرية لا تفصح الوجوه عنها ، إلا قليلاً . لكن العيون التي تلوز مضطربة في محاجرها هي التي تفضح الأهواء الخبيئة في قلوبهم .

أقف ساعة ، أو بعض ساعة . أُؤخِّر سفري ، قصداً ، لأقف أطول وقت ممكن في هذا الخليط اللامتجانس ، المُتَحاشد مثل رعد هزيم . أرى وجوهاً كثيرة أعرفها ، وأزوالاً حسبتُها غابت عن الوجود إلى الأبد . هيئات لامسْتُها ، ذات يوم ، تحت غطاء الرمل الذهبي الساخن في بادية الشام ، ها هي ذي تمزج الحركة بالسكون ، دون أن تبرح المكان .

ساكناً فوق أرض طالما حلمتُ بالوقوف عليها مُذْ كنتُ طفلاً ، أرى نفسي مليئة بأجناس وآهات . أيهذا العدم الجميل لماذا لاتدوم؟

الأناضول : هضاب تليها هضاب . من أنقرة شمالاً إلى البَرّ العربي جنوباً ستعبر الفضاء الجميل صامتاً مثل طفل يلتقي بأمه بعد ضياع . ستكتشف أن الرؤية ، رؤية البشر والأشياء ، ليست حيادية . وأهميتها لا تكمن في إجلاء معالم الطريق ، ولكن في قدرتها على بعث الحياة التي ابتلعها الزمن . ولن تشغل نفسك بالسؤال : ولكن كيف تفعل هي ذلك؟ يكفي

أنها تفعله ، وأنها تجعلك تحس به ، وكأنه يحدث الآن أمامك . أُنظُرْ .

هضبة الأناضول قارية يتمثّلها البصر بهيبة ، وسعادة . إنها قُروص (جمع قُرْص) تجثم فوق وجه القاع ، مثل الكمأ المروي في سهول الجزيرة عندما يتفتَّق من بطن الأرض . على قممها غيوم وأساريح . ثلوج بعيدة تنام هادئة لا خشية لديها ولا ظنون . تعرف أنها باقية حتى الربيع القادم ، ولربما لأعوام عديدة ، أُخرى . في فضائها لا يسرح النظر بعيداً ، إذْ سرعان ما تحدّه الأهاضيب .

وأحسُّكَ تبدأ التململ في مقعدكَ وأنت تريد أن تطير . ولكن ، لماذا صرتَ تتهدَّج ، وأنت تمسح فضاء الأناضول بعينيك الذاهلتين؟ أزَهْوَة أنت أم سراب؟

ثِنْيات أرض الأناضول مثل ثِنْيات بطن وَلود تجعل البدن يقشعر من شدة الجمال . أينما نظرت تَرَ الأرض تُفْرج لك أنحاءها . تفرجها بلا خوَر أو دنَس . أرض تملأ النفس بشعور غريب ، مثل امرأة تدعوك بخفر لتأخذها بعنف ، بل بأعنف ما تستطيع .

تناقض أسطوري بين الرائي وما يرى تُفْرزه الأناضول منذ أن تتملاّها . تناقض لا يمكن تفسيره على شاكلة واحدة مهما كانت عميقة وممتعة . الأرض هنا نوع من الوجود ، من الكينونة ، من أشتات الأقوام التي عبَرَتْها ، والتي لا زالت فيها

تقيم . كل أرض هي مثل هذه؟ لها مثل هذه الخواص؟ لا! هذه تأكل الناس ، وتصنع منهم أساطير . تذَكَّرْ!

هكذا تفهم ، ربما ، كيف هجم عليها الداني والقاصي : الاغريق ، والرومان ، والفرس ، والعرب ، والمغول ، والسلاجقة ، حتى لا نبحش فيما قبل الطوفان . كلهم ذابوا في ثراها وكأنهم بذار الربيع الذي لا يكفُّ عن الإثْمار .

ينحدر الطريق إلى الجنوب بسهولة . لكأن الأرض تجرنا إلى «قونية» .

شمس الأناضول لطيفة هذا النهار ، مثل فتاة خرجتْ للتَوّ من الحمام . تنير لنا الكون ضاحكة ، وكأننا في أول الربيع ما زلنا . في أول ربيع دمشقي مشَطْتُه بقدميَّ من الغوطة إلى الغوطة الأخرى ، وأنا أجُرُّها بتَحايُل ، مُتَضاحكاً بخبث ، مثل ثعلب ينتظر وليمة محرمة عليه .

أتَلَمْلَم ، وأتَبَعْثر ، ناظراًحولي ، مردداً بمتعة : أخيراً ، الشام!

ظلال على الضفاف البعيدة

على الضفاف البعيدة للهضاب، بدأت أواخر الأعشاب تُلَوّن القاع بخُضْرَة صفراء أخّاذَة. شيء من الربيع، ولازلنا في الشتاء؟ ولكن لِمَ التساؤل وها هي ذي الطبيعة تعطيك ماتريد. ما كنت تحلم به، بالأحرى.

أوه! مساحات وأخاديد. فضاء مرصّع بكتل الأرض كالياقوت. القاع الحمراء المسْوَدَّة قليلاً من شدة الخِصاب، مثل شآبيب نهْدٍ مسْتَثار، هي التي ستُلْقي بكَ في أعماق طفولتك «الجزيرية». وتصير تبكي، وأنتَ تمد يدك لتلمس نهود الأرض التي تهمّ أن تفرز الحليب. ولا تصل.

شيئاً، فشيئاً، تَتَباعد الهضاب عن بعضها بعد أن كانت متلاحمة. وتبدأ أوائل السهوب الجنوبية بالنبوغ. وفي الأفق البعيد الذي يبدو قريباً، أصير أرى السَمْت وكأنه في مُقْلة العين. في الأناضول لا وجود حقيقياً للمسافة. وحده البَصَرُ يُحدِّد «موضع» ما يراه. وكتعويض عن تلك «اللَعْوَكة» الأرضية الشديدة التلاحم، تصير القاع، فجأة، شبه منبسطة، خضراء،

سوداء ، حسب الكيفية التي بها تنيرها الشمس . وشمس الأناضول ليست حيادية . لقد كانت دوماً حليفة البشرالآهلين والراحلين .

سهوب الأناضول امتدادات هائلة المساحة ، ولها مشهد اسطوري . تكاد تقرأ تاريخ «الكون المتوسطي»على صفائحها . حيثما نظرتَ يقع بصرك على «رقعة تخبّيء الميتولوجيا» التي رضَعْتَها صغيراً . ولذا أحسُكَ تقرأ دون جهد ما يتطلّب من الآخرين جهداً كبيراً . وليس ذلك بسبب أبيك . ولا لأنك تَمَرْغَلْتَ كالمُهْر الصغير على أتربة الكون السفلي ، كون ما تحت الأناضول . ولكن لأن روحك انبجسَتْ هنا ، مثل نبع صغير بلادليل . نبع مهمل لا أحد يفتّش عنه ، ولا هو يريد .

الخصوبة الأناضولية مكتوبة على جلد الأرض . لا حاجة بك لتخمينها . يكفي أن تسمح لعينيك بالنظر إليها لتقرأها . أَرأيتَ؟

تتذكّر ، الآن ، أمكَ وهي تَروز بعينيها نهود البنات : هذه وَلاّدة ، وهذه عاقِر . هذه حنون ، وهذه جافية . وكنت تتساءل ، في سرّكَ : «كيف تعرف هي كل هذا عنهن دون أن تمسّهن»؟ لم تكن تفهم ما كان مفهوماً بلا مشقّة . لماذا؟ لأنك لم تكن تعرف مَنْ أنتَ . لم تكن قد أضعْتَ الذين أحببْتَهم ، بعد . كنتَ في حضن أمك التي كانت تسوس الناس وهي تُلَمْلِم السَماد . سَماد الموقد الذي كانت تشوي لكَ فيه قُرْص الذرة

الوحيد قبل أن تدفع بكَ خارجاً : «إمشِ . وقت المدرسة راح» .

يمتد الطريق على وجه الأرض مثل سَيْر جِلْد عريض . وما عليكَ إلا أن تُجاريه . أخيراً ، تتمدد السهوب . تتمدد كثيراً دافعة بالهضاب إلى ما وراء الأفق . وفجأة ، يغدو الكون مسطحاً وخفيضاً مثل راحة كفّ جميل . شساعات أرضية لا حد لها ، يغمرها نور الشمس التي تظل واقفة في قلب السماء . نمشي ، ولا تمشي الشمس .

طائراً على مستوى الريح ، استطيب النظر إلى جلد التراب المرصّع بالضوء . تراب أحمر ، آجري ، خمري اللون والوَهْج والارتداد . أرى الأرض وهي تتلوّن بين الأسود الباذنجاني والأصفر العُصْفري ، وأحياناً ، تصبح بْلَقاء بلا لون . وأصير أتحسَّر : ترْبان الجزيرة وقيعانها ، تلك التي افتقدتُ منظرها منذ زمن طويل .

أفهم الآن ، ربما ، دور الأناضول وأثره على «الهلال الخصيب» : الأرض الاسطورية التي انْبنى العالم القديم ، كله ، عليها . وعلى الخصوص ، أثره على «الجزيرة السورية» التي تحتل الطَرَف الغربي من الهلال . الأناضول كان سقف ذلك العالم الذي انبثقتْ فيه الديانات التوحيدية الثلاث . وبين هضابه العظمى تكوّنت الرُؤى والأساطير .

وليس بلا سبب أن تلتجيء سفينة نوح ، وفيها من كل زوج اثنان ، إلى أعلى قمة جبلية فيه : ««جبل أرارات» ،

عندمـا حـاقت بهـا الماء ، وهدد الفـيـضـان جنس البـشـر ومواشيهـم .

قــونْيــــَـة

في صحن سهليّ عملاق تقع «قونية» .

أقف طويلاً قبل أن أدخل فضاءها المنفرش مثل بساط أحمر . أتساءل : أين أنا الآن؟ ولم يكن التساؤل عبثاً ، ولا زائداً عن اللزوم . كان شيئاً تفرضه طبيعة السهوب التي تتشابه كالتوائم . تصورتُني أدخل «حيدر آباد» في سهوب الهند الأوسط ، قاصداً قلعتها المهيبة «غُلْ كوندا» . صرتُ أراني ، أيضاً ، في سهول الجزيرة السورية الواقعة تحت الخط : تحت خط الأناضول الجنوبي ، حيث الشمس والريح تلعبان مع الكون لعبة الحياة والموت . تلعبان حول «قبور» المدن الإنسانية الأولى التي تحوّلَتْ إلى تلال . لا ، أتخيّلُني في السهوب المحيطة بـ «أغْرا» ، و«جيبور» ، في طريقي إلى «تاج محل» ، أو إلى «القلعة الحمراء» .

المغول يحبون السهوب ، وبنوا كل روائعهم في مراكزها . «تاج محل» في «أغرا» ، و«القلعة الحمراء» بالقرب من «جيبور» ، و«غُلْ كوندا» في سهوب حيدر آباد التي لا تحدها

حدود ، مثلاً . وكان لا بد أن يلحقوا بـ«جلال الدين البلخي» ، الذي صار «رومياً» ، إلى «قــونية» . لكأن ذلك مرقوم في لوح ، تقرؤه خيولهم التي لا تتعب من الهَذْب . ومع أن أباه هرب به منهم ، إلا أنه انتظرهم في المكان الذي كــان يعــرف أنهم سيجيئون إليه : سهوب الأناضول .

ولكن أي شيء تشبه هذه الـ «قونية» التي شهدت تفتّح الحب في قلب جلال الدين الرومي؟

وصلناها عَـصْـراً . الشـمس في أوجـهـا . الأفق مكشـوف بروعة . السهوب العظمى تحيط بها مثل قلادة من جوهر متعدد الألوان والأطياف . وهي من شـدة ضـآلتـها ، مـقـارنة بشـسـاعة السهوب ، تثير الشفقة . تكاد تطلب منا أن نرفع أكفَّنا مبتهلين من أجل أن يحفظها الله . أي قونية!

سأبقى فترة طويلة في مركز باصات النقل ، على ضفاف المدينة التاريخية . آكل المهلبية الحلبية ، وأشرب شاي الجزيرة الخامر . أقرط قرصاً من الخبز الممزوج بالفستق والنارنج . الخبز القريض الذي كنتُ أحلم به صغيراً .

فيها أصير أتنشّق الهواء بهدوء ، وكأنني أخشى أن ينفذ بعد لحظات . أنظر حولي بمودة أذهلتْني (فأنا عدائي بطبعي ، وهنا دخلت مزاجاً آخر) .

الاستطالات التاريخية تقودنا ، أحياناً ، إلى ما نريد ، وأحياناً ، إلى حتوفنا . فجأة ، أترك مكاني الذي أحسستُني

ألتَصقَ به ، وأبدأ المشي المجهول . المشي الذي لا يقود إلى نقطة محددة ، وإنما إلى كل النقاط . مشي الصحراء القديم الذي قد يستغرق الليل والنهار حول بئر مهجورة دون أن يحظى بها الماشي . والماشي يبدو ، مع ذلك ، سعيداً ، لأنه لَمْ يظل ساكناً في مكانه . لكن فضاء «قونية» لا يؤدي إلاّ إلى «مكان واحد» : تكية مولانا .

في العُصَيْر الصغير أقف أمامها . أمام الصرح الأخضر المقبب بالذهب والفسيفساء : «إنها تكية مولانا جلال الدين الرومي» . ينبّهني الرجل الذي لم أطلب منه شرحاً ، لكأنه يكفي لشرح المعجزة بأن نَتَلفَّظ حروفها .

حشود وأنحاء . بشر مختلف الأشكال والأهواء . المدينة القديمة تمتليء حتى رأسها بالحجاج والزائرين . لكأن حَشْراً يتهيّأ للحدوث هذا المساء . أقف في وسط الجمع الدائر حول القبة الخضراء ، وأطلق العنان لنظري . القلب يتحدث بصمت ، واللسان منعقد من الدهشة . ها أنذا أخيراً في فضاء الصرح الذي لَوّعَتْ أبي الرغبةُ في زيارته . ولم يزُرْهُ .

أحاول أن أفهم . أحاول أن أفهم ما لا يُستَوْعَب بالفهم ، وإنما بالإيمان . أعرف الماء الضحل الذي كان أبي يخوض فيها ، ولا أعرف هذا البحر . أحاول . وهو ما سيتبدّى ، سريعاً ، مثل عبث جميل .

بعد توتر واضطرابات ، أقرر السير على قدميَّ حتى الفندق

الصغير القريب من التكية . أمشي ، وكأنني أسير على الماء . رغبة عذبة تحملني نحو طفولتي التي . . . مَنْ يعرف ، الآن ، وفي هذا المكان ، مَنْ هو الماشي نحو الشمس؟ نحو الشمس التي لا تريد أن تغرب هذا النهار . شمس الجزيرة التي لَوَّعَتْني صغيراً ، وحَمَتْني كبيراً . الشمس! المادة الوحيدة التي أحنُّ إليها . وهي هنا في كيسي .

أضع حقيبتي الصغيرة في الفندق ، وأنطلق إلى الشوارع على الفور .

في مدينة مولانا ، كل النساء محجبات . في الباص الصغير الذي حشرتُ نفسي فيه ، يقوم الرجال لتجلس النساء . وأمامهنَّ يقفون باحترام . هنّ لا يلبسن إلاّ الأسود والفضّي ، حصراً ، ويبدو الحياء التاريخي مكتوباً على جباههنَّ .

قررتُ ألاّ أستسلم لأول مشهد أُلاقيه . سأمشي المدينة على قدميَّ ، إذن ، من أجل أن استوعب بعض خصائصها . فماتراه العيون شيء ، وما تحسّه الأنْفُس شيء آخر . وأحياناً ، لا علاقة لأولهما بالثاني .

قبل أن أنطلق سآكل بعض الطعام في «شيفا ريستوران» / أو «مطعم الشفاء» ، الواقع في الجادة الكبيرة التي تقسم المدينة قسمين : جادة مولانا جلال الدين . وأحس بالرغبة تدفعني لكي أنْدَسَّ بين الحجاج والزائرين ، على الفور ، وأُقاوِم . أريد أن أحتفظ بحريتي أطول فترة ممكنة ، أريد أن أتهيّأ للقاء .

عليَّ منذ الآن أن أتمرّن على المشاهدة التي ستكون في مقام المجاهدة .

مايثير الدهشة هو كثرة النساء مقارنة بالرجال ، المقيمات منهن والزائرات . وأحس بأول الليل يحط سوَادَه الشفيف على «قونية» ، وكأن النهار تعب من مجاراة الخلق على التكية ، فقفَلَ ضوءه ، وراح .

قبل أن أبدأ المشي ، قلتُ في نفسي : «لن أكتب ليلاً» . وبعد أن مشيتُ عشرات الكيلومترات «المرصوف بعضها فوق بعض» ، كما يقول «الماغوط» ، وجدت القلم يأخذ بيدي ويكتب . يكتب عن «قونية» الاسطورية التي ملأت بأفانينها السهوب ، من «دياربكر» إلى «الجزيرة» ، ومن حلب إلى أنطاكية . من بَرّ الشام ، إلى حوض النيل ، وربما أصقاعاً أخرى لم أسمع بها ، بعد . مدن وأقاليم ملأتها هذه الـ «قونية» بحكايات مولانا «جلال الدين» ، وبأفاعيل الجميل «شمس الدين التبريزي» .

قمر قونية الحزين

مدينة «قونية» منفرشة» على سعة من الأرض .

المدينة الحديثة منها عبارة عن بنايات اسمنتية ملونة ، بشعة ، متفرقة المواقع ، عالية الطوابق ، لا لطف فيها ، ولا جمال . إنها مثل المدن العربية الحديثة ، مع الأسف ، «ثكنات نوم وإقامة» . وهي الأخرى مثل تلك لا روح لها ، ولا توحي بشيء سوى المرارة والنفور . لكنني لم أجيء لأرى هذه . أريد أن أرى الأخرى .

«قونية» العتيقة دور طينية واطئة ، وأخاديد . نساء مسربلات بالأسود والبني الغامق ، مثل فاكهة جاوزتْ حَدّ النضوج . أضواء خافتة كمشاعل نَزْل قديم ، تدعو التائهين إلى المجيء قبل أن يصبح الليل سَرْمداً . أضواء تكاد تقول : لا تلوموني إذا انطفأت . ومع ذلك ، تظل تنوس طيلة الليل مبددة كهارب الظلام .

صمت . سكون . أزوال تمر بعيداً وكأنها تتحاشاني . وحدي ، أسير بهدوء مثل طفل يتمرّن على السير في حوش أهله ، ولا يتعب . يمشون ، وأمشي ، ولا أحد يصل إلى المكان

الذي لا يريد أن يصل إليه . كم أحببنا من الأمكنة دون أن نتمكن من الإقامة فيها . وكم أقمنا في أماكن لا تعني لنا شيئاً . لكأن انحياز الكائن إلى هواه أمر لا يسر البشر ، ولا تحبّذه الطبيعة . إمشِ! أقول لنفسي وأنا على حافة الهواء .

أمشي حتى «مركز مولانا الثقافي» ، حيث الدراويش الدوّارة يبدأون طيرانهم في الريح . أراهم يلاحقون عتمة الليل ، مثل فوانيس منزوعة الفتائل ، ومع ذلك ، تضيء . وسأقص ذلك على أبي كما كان يقص عليَّ الحكايات .

فجأة ، أرى القمر . قمر صحرائي القديم الذي كان أبي يُسَبِّح تحت نوره الرب . وأقف في مكاني . أقف بعناد مثل جَمَلنا الأصهب المقروح وقد أبْهظَتْ ظهره الحُمول . أُريد أن أشبع منه بعد أن أفتقدْته ، طويلاً ، في «باريس» .

هذا هو القمر! أصير أُخاطب نفسي . القمر الذي كنت ألعب تحت ضوئه حافي القدمين لعبة «الشظاظ» . ألعب في رمله الليلي عارياً إلاّ من هِدْم قديم . ألعب وهم كلهم حولي ، ولا أحد ، الآن ، منهم سواه : قمر قونية الحزين .

أقف في دوحة القمر طويلاً . أتطلّع في عتمة الليل إلى بوادي الجزيرة المرسومة على جبهته . أريدها أن تجيء للتوّ . أريده أن يمنحني «الذُهْبَة» الاشراقية إلى هناك . ويحضرني وجه أبي وهو يردد : «خطوة بخطوة ، وخطوة بآلاف الخطوات» . أحاول أن أعرف الطريق السريع إلى القلب ، إلى قلب الكون المليء

بالمثابرات . واستدير بهدوء لأرى الطلّ الذي صرتُ أحس لمسته الباردة على وجهي . ولا أعثر إلا على الندى : ندى الليل الغامر في البادية .

أحسني أريد أن أرتجف ، ولا يصل الهَمَيان إلى أعماقي . كانت عبارة «مولانا جلال الدين» المرسومة على مدخل المركز هي التي ملأت عينيَّ : «إبْدُ كما أنتَ ، أو كُنْ كما تبدو»

في المركز

سألج المركز العملاق مع الواجين الذين تُسَرْبل البُهْمة والإجلال وجوههم . لكأنهم مدفوعون بقوة خفية إلى هذه النقطة المعزولة من الكون . من أي أصقاع الأرض جاؤوا؟ وعَمَّ يبحثون؟ ولكن ، ما أهمية الأسئلة في حضور الشغف والقُبول؟ «إمشِ»! آمر نفسي صامتاً وأنا أحاول ، عبثاً ، أن أنقل بدني من نقطة إلى أخرى . تكاد تحول دون ذلك كَثْرة الخَلْق ، والعُبوس .

سريعاً ، أضيع بين الهيئات والوجوه . خلائق من شتى أنحاء الكون يتجمهرون هذا الليل ليحتفوا برؤية تكية مولانا . يريدون أن يبكوا . ومنهم مَنْ يبكي ، فعلاً . يبكون أباهم الذي خلَّفهم يتامى وبائسين منذ سبعة قرون . وسيبدو لي جليّاً ، في تلك اللحظة الغامرة ، أن كل شيء قابل للفناء ، ما عدا الفكر . ما عدا الفكر الانساني الذي يعرف كيف يأسر العقول .

سأتمتّع بالوحدة في وسط هذا الصخب واللاعنف . بين هذه الحشود التي تتوارد مثل إبِل عَطْشى ، أنا الوحيد الذي «يبدو بلا ظَماٍ» . ولكن ، عَمّ جاؤوا يبحثون؟ سيحزنني أن أكون البريء الوحيد بين هذه الهيئات التي لا تتوقف عن

التحرُّك والإلتزاز . قد تكون تعرف عمّا جاءتْ تبحث ، فعلاً ، وأكون أنا الوحيد الذي لا يعرف . ولكن ، مَنْ يدري؟ ومولانا يقبل كل شيء إلا تزييف الكائن لفكره ، ولجوهر حياته . أنا؟ أريدأن أُشاهد وأرى . أن أدع نفسي تنْقاد ، بلا مقاومة ، مثل المُهْر المَغْسوف ، إلى ما تبحث عنه ، وإنْ كانت تجهله . أدعها تنقاد حتى ذروة النشوة .

مثل الاخرين سأحْتسي ، في المركز ، كأساً من السَحْلَب الساخن ، وأنا أتوسّطهم بلا رقيب . أحس أنني مَحْميّ عن كل هؤلاء ، برغم وجودهم الآسر حولي . ما هي العُزْلة في هذه الحال؟ هي ألاّ تحسّ بما يحس به الآخرون . وليس عليك أن تشاركهم أحاديثهم التي قد تكون حتى لاتعنيك .

أنت لا تسمع ، وهم لا يقرأون ما تكتب . أي عزلة أكثر عمقاً من هذه؟

السؤال

منتظراً أن يبــدأ الدراويش بالدَوَران ، أجلس في عــمق الصالة الممسرحة ذات الفضاء المستدير بدقة مثل ثمرة كمثرى . تحتي تماماً مجلس الموسيقي ، وتحته . حولي يتحلّق الناس مكثّفين مثل جمع من الذباب حول نَثْرَة عَسَل .

هذا التحضير المنهجي ، الصارم ، يجعلني استعيد ، شُبْه باك ، موكب «جلال الدين» ممتطياً بغلته المطَهَّمة التي تمشي بأبهة وكأنها ، هي الأخرى ، أُلِمَّتْ بمعارف الكون . وفجأة ، يوقفُ الرَكْبَ «شمسُ التبريزي» منبثقاً من القاع ، مهلهل الثياب ، بائس الهيئة ، ليسأل «المعلِّم» سؤالاً شديد البساطة ، لكنه باهظ الإجابة . وأكاد أرى حيرة «جلال الدين الرومي» قبل أن يَخُرَّ مغشيّاً عليه .

سؤال حَمَل إمكانية إجابات العالم الاسلامي ، كلها ، وقتذاك . واكتفى السائل بالصمت ، والمجيبُ بالإغماء . إنها إشكالية المعرفة . إشكالية الشغف بدَفْع المعرفة «عالياً» إلى حد الإنكار .

لم يكن الإغماء ، إذن ، إلا محاولة «موْقوتَة» للإمساك

بالخيط قبل أن ينقطع إلى الأبد . لم تكن عملية حدوثه إلاّ وقاية من «قطيعة معرفية» كان لا بد لها من أن تحدث في حالة صَحْوٍ بلا جواب .

من إغماءته سيفيق «الرومي» وهو بين ذراعَيْ «شمس الدين التبريزي» . وسيختليان أياماً ، وأسابيع ، وأشهراً ، ولن «يفيق» جلال الدين الرومي ، من بعد . لن يعود إلى «حاله الأولى» . وفي ذلك ستكمن كل عَظَمته المقبلة . تكمن عظمة «اللقاء الحاسم» بين الكائنات التي حَسَمَت أمرها ، وقررت أن تغيّر مصائرها .

في مثل هذه اللحظات يتجلّى الدور التاريخي لِلِقاء الكائن بالفكرة التي قضى عمره يبحث عنها ، دون أن يراها ، مع أنها كانت تتدحرج بين قدميه . فـ«الوضع القديم» لا يزيحه إلا وَضْع أقوى منه . وَضْع يقتضي تصوُّراً جديداً للعالم ، وسلوكاً يناسبه . وإنْ كان لا يمكن تجنُّب مخاطر وضع مثل هذا ، ولا تقدير ميِّزاته ، في الحين ، فإن قبوله وتبنّيه لا مفرَّ منهما .

ولكن ، ماذا قال له «شمس»؟ وهل ما قاله بشكل سؤال لا جواب شافياً عليه خارج «الاعتقاد المطلق» الذي لا يمكن البرهان حتى على ضرورته ، بَلْهَ «حقيقيَّته» ، يستحق كل هذا «الغياب»؟

المثير في الأمر أن «جلال الدين الرومي» ، عندما سمع السؤال ، غامر باكتشاف عُمْق جهله الذي لا يُغتفَر .

و«شـمس» ، السَـقّـاء ، المُبَلَّل بالماء الذي يَنُزُّ من الدِلاء التي يحملها على ظهره الجميل ، وكأنه يحمل «المعرفة الحقيقية» ، لا معـرفـة الكتاتيب التي كـان «الرومي» يمارسـها ، «شـمس» الذي لا يملك من العـالـم إلا ظهـره المبَلَّل ، هو الذي يسـأل ، والآخر ، الذي يبدو وكأنه يملك «كل شيء» ، لا يُجيب . لماذا؟ لأنه لايملك ، في الحقيقة ، شيئاً : لا يملك الإجابة الشافية .

الغنى المعرفي ، برغم الخَواء المادي الظاهر ، هو الذي أعطى «التبريزي» الطاقة الإنسانية التي جعلَتْه يطرح السؤال المُعْجِز . جعلَتْه يقذف بسؤاله المخيف في وجه الرومي المبجَّل ، وكأنه يقول له : «السـلام عليك يا مولانا» . لكن «مولانا» سيبدأ بالدَوَران حتى يخُرَّ مغشيّاً عليه دون أن يحير جواباً . وسيتابع «شمس» عمله اليومي الذي يعيش منه ، بلا اكتراث ، مفكِّراً : فليبحث كل منا عن «حقيقته» ، وعن كيفية إيصالها إلى العالَم .

طاقة «مولانا» على التغيّر والتبدّل هي التي منحَتْه القدرة على «إعادة النظر النقدية» بـ «مَـنْ هو» . وربما ، هي التي دَثَّرَتْه بالإغماء المُخْصِب . فالسؤال عند الكائن الفارغ ، حتى ولو كان خطيراً ، يغدو فارغاً . ويمتليء بإجابات لا حصر لها عند مَنْ هو ممتليء بذاته . وقد تصير الأسئلة مصيراً تراجيدياً عند مَنْ هو محتقن بالشغف والأساطير .

وهكذا اجتمعا .

اجتمعا ، ولن يفترقا ، أبداً ، حتى بعد أن مات أحدهما مقتولاً .

إنه الحُـــب .

النـاي/ النأي

ويبدأ الإنشاد .

يبدأ الإنشاد هادئاً في ذلك المساء «القونيّ» الجميل . ثم يعلو ، ويعلو إلى أن يصير الحضور بلا حُضور . يصيرون صوتاً ، مردداً : الله . الله .

يقرأ المُنْشِد قصائد الغزل بـ«شمس» ، ويصير الخَلْق يتَلَوّى مثل عجين إلهيّ ، يخبزه الخبّاز على نار صوته . ولا تعود تسمع ، ولا ترى ، سوى الترديد : الله . الله .

ينتهي الإنشاد .

فيبدأ الناي نواحه .

عَزْفُ الناي الحزين يملأ المكان بروح القداسة والخضوع . الناي ليس هو «الصوت» ، ولا «الموسيقى المَبْحوحَة» ، ولا «الأسى» المتَضَمَّن ، عفوياً ، في تلاليف نواحه ، وإنما هو : «سِلْسال الوَصْل» . وَصْل العاشق بمعشوقه .

الناي يبدأ بالاستنجاد ، وينتهي بالاستجداء . وهو لا يتوجّه إلاّ إلى «المُستَنْجَد» ، أو «المُستَجْدى» ، ولا أحد غيره .

وهو لذلك يكاد ينادينا . إنه الخيط اللامرئي ، ولكن المسموع ، الذي تدُبٌ عليه روح الكائن الولْهى إلى أن تصل إلى حيث هواها . وفي حالتنا هذه ، هو الخيط الروحي الذي يوصل «الرومي» «بالتبريزي» . ولكن ، أين ، ومتى ،سيتُمُّ الوَصْل؟ ولِم َلَمْ يشعر أي منهما «بأخيه» قبل الآن؟

عندما يرد جلال الدين الرومي عليه السلام برقة متناهية : «وعليك السلام يا أخي» . يكون «أخوه» قد ابتعد حاملاً جود الماء . على ظهره الجميل المتعب تتناثر القطرات . وشبح ابتسامة لا تُفَسَّر يرتسم على شفتيه الشبقتين .

ويقع «الرومي» أرضاً وهو يفكِّر : «تجاوزني»! وتلك هي«عَتَبة الخوف» في العشق : تجاوز المعشوق لعاشقه . إن لم تكن «نقطة الموت» فيه . وهو ما يخشاه «جلال الدين الرومي» إلى حد العذاب . وسيعذبه أكثر إحساسه بأنْ ليس أمامه إلاّ الامتثال لأقانيم العشق . وفي النهاية ، أوَليس الله هو الذي يملأ ، ذواتنا بالحب؟ مَنْ يحق له أن يتمرد على عطيَّته؟

وينادي «الروميّ» عليه بقوة ، غير مبالٍ بمَن حوله من طلابه ، ومن الأهالي الذين يجلّونه ، وقد لَفّهم الذُهول : يا «شمس»! يا «حبيبي»! وشمس الدين التبريزي يتابع سيره غيرعابيء بمَنْ ينادي عليه . لقد حَمَّل سؤالَه كل ما كان يريد أن يقوله ، ولم يعد حتى الجواب يهمّه .

كان قد ألقى شباك اهوائه يقصد بها صيداً . وقد صاد ،

للتوّ ، روحاً هو بأشد الرغبة في لقائها . ما عليه ، إذن ، إلاّ أن ينتظر الخَطَرات .

وأحسب أن «الرومي» كان يتمتم : إنه يعرف كيف يحطّم القلب ، أتَراه يعرف كيف يداويه؟

ويبدأ «جلال الدين» الدَوَران في مكانه ، متعالياً حتى الغيم ، حتى الغَيْبوبة ، حتى اللانسيان . وعندما يفتح عينيه البَليلَتَين سيجد «التبريزي» جالساً بالقرب منه ، متهيّئاً ليمسح رذاذ الشغف الذي تراكم فوق شفتيه .

ويشهق . يشهق الشَهْقَة . شهقة المتعة القصوى . المتعة الوحيدة التي تحرِّك لواعج الكائن عندما يتَلَمَّسُه الحبيب . ومن جديد ، يصرخ : يا«شمس»! قبل أن يغيب عن الوجود ، من جديد .

وتدور به الدنيا .

ويبتعد «شمس» حاملاً قِرْبة الماء ، وهي تُنَقِّطُ على ظهره الجميل من نَزيزها . تُبَلِّلُه بما يكفي لإبراز ثنايا جسده الذي تُدفئه الشمس . «شمس» قونيه الرحيمة ، سَميَّتُه .

دخول الدراويش

ويدخل الدراويش .

يدخلون بطقوسية عالية الدقة .

يلجون الفضاء ببطء فنيّ آسر . رِجْلاً ، رِجْلاً . واحداً ، واحداً . يلجونه باحترام لا مثيل له . لكأنهم في حضرة كائن يملأ الفضاء بأنفاسه الحَرّى . وبالفعل ، في الأعلى ، يتربّع «جلال الدين ، البلخي ، القونوي ، الملقّب بالرومي» ، يتربع فوقهم ناظراً نحو الغيب . والغيب هو جوهر الكائن . وقد صار ، هذا المساء ، في لحظات الانشغاف الخارقة ، جوهر هذا الحُضور المأسور بدفء «مولانا» . وأصير أتطلّع مستثاراً : إلى أي منا ينظر «جلال الدين»؟

الآن ، يدخلون الحلبة .

يدخلون حلبة الانجذاب بخِفَّة أثيرية . يمشون وكأنهم يطيرون . لا يكادون يلامسون الأرضية الكريمة بأقدامهم . وبعد كل خطوة ينحنون عليها ، وكأنهم يشمون أريج الغائب الذي يرونه وهو إليهم ينظر بتقدير . إنهم رسل الحُب الذي لا يُفنى ، وما عليهم إلا احترام وصاياه .

وفجأة ، ينقسمون .

ومنذ أن ينقسموا ، يسلِّمون بإجلال على أحد لا نراه ، نحن . ويقفون . يقفون صفّين متقابلين . لا ينظر أحدهم إلى الآخر ، وإنما إلى الغيم . لكن الغيم المتواري خلف الحجاب الطيني لا يُرى . وهم ، مع ذلك يرونه ، وهو يراهم ، وهم يعرفون ذلك ، ولا نعرفه نحن .

وحده ، «كبيرهم» ، يبدأ السَيْر منفرداً ، يَتَخَتَّل ماشياً ، مثل نمر خلف بقرة وحشية . يبدو متأنياً ، ومرهقاً ، من شدة توتره . يذهب حتى الحافة المضيئة للحلبة ، ويهمُّ بالجلوس . لكننا نحسه قطع آلاف الأميال قبل أن يصل ، أخيراً ، إلى «مكانه» .

تحت نقطة الضوء ، تماماً ، يقعد . يقعد بهدوء . والقعود في حالته ليس إلقاء الجسد على القاع ، وإنما هو ملامستها . ملامَسَتُها بنَفَسِ الجسد الذي خَفَّ حتى صار «رائحة» : رائحة بدن لم يعد يهمه من الحياة إلاّ الوَجْد .

هم ، كلهم ، حتى هذه اللحظة ، سود .

وفجأة ، يجلسون .

يجلسون متلامسين دون أن يمس أحدهم الآخر . لكأنهم قارات معزولة ، لكنها تتلاصق بشدة . تراهم فُرادى ، وهم ، في الحقيقة ، كتلة . إلى أي منهم تريد أن تنظر؟ وهل يمكن لك أن ترى ، في بُهْمة النَفْس ، شيئاً؟

الرؤية لم تعد مهمة . صار الصوت هو الوجود . حتى

«المعنى» يتلاشى وراء جُذُر الصوت الآتي من أعماق الأرض الأناضولية. لكأنه آتٍ، للتوّ، من سفينة نوح، وقد تركها مبللة بالمياه.

وفجأة، يبدأ «المنفرد» الذي قعد، قبل ثوان، الإنشاد: «شمس»، «شمسي»! «حبيبي». ويقعد الآخرون الذين ظلوا واقفين إلى الآن. يقعدون بلا جَلَبة، وكأنهم لا يتنفَّسون.

ويتابع هو الإنشاد: «استمع إلى الناي يأخذ في الشكاية، وعن الفِرْقَة يمضي في الحكاية». وبعد أن يتمايل القاعدون الذين لا زالوا يلبسون الأسود الفاحم، يعود الصوت الجميل، قاذفاً بكلماته في فضاء مركز الاستماع: «الكل معشوق، والعاشق مجرد حجاب»، ويضيف: «شمس»! «شمسي»! قبل أن يعمّ الصمتُ الفضاء، وكأنه البُعْد الأنساني الآخر المُلازِم للصوت.

ويسيطر الناي على الفضاء الصامت، نائحاً. ويملأ الاهتزاز العميق كيان الحضور الذي امتلأ رغبة. وينشد «المنفرد» من جديد: «نار العشق هي التي سرتْ في الناي«. وبعد أن يلتهب الحضور، دون أن يجرؤ أي منهم على التعبير عن سَعيره، يتابع: «هذا الأنين نار، وليس هواء». وأكاد أصرخ: ومَنْ يحسب أنه غير ذلك. لكن الجلال الليلي والخشوع العميق لا يسمحان لأحد بالتعبير عمّا يحس، ولا عمّا لا يحس.

وأصمت مندثراً ، بين هذه الرمال البشرية ، مثل بئر صحراوي يُكَمِّمُه عَوْسَج وذرار .

الان ، تشارك الآلات الموسيقية الأخرى النايَ في العزف .

ويقف الدراويش الذين كانوا يَثْوون في الطرف . يقفون كعيدان الحقول الخريفية في سهول «قونية» ، ويبدأون السَيْر . يصيرون يمشون ، وكأنهم واقفون . خطوة ، خطوة . لكأنهم يتمرَّنون على حركة المشي للمرة الأولى . وعندما يُلامس أولهم آخرهم ، يشكلون دائرة سوداء مغلقة .

لحظات طويلة ستَمرُّ وهم يمشون كالغرْبان قَدَماً بعد قَدَم . لحظات الاستغراق العميق في الذات ، تلك اللحظات التي لا نعرف ، نحن اللاهثين وراء الحياة ، كيف نصيدها .

تدخل ، الآن ، فئة ثالثة من الدراويش (الأولى كانت فئة العازفين ، الثانية كانت فئة المنشدين) ، تدخل هذه بطقوسية مماثلة لدخول الفئة الثانية . وخطوة خطوة يلتحقون بالتسعة الأوائل . وفي مواجهتهم سيحتلّون نصف الدائرة الأيمن (قاعة الانشاد ، في مركز مولانا الثقافي ، دائرية) ، بعد أن أحتل الأوائل نصفها الأيسر . أما «الشيخ الرئيس» فمكانه في صدر الدائرة ، تحت بقعة الضوء ، تماماً . ويعتبر ، هو ، معيار الحركة والسكون . وعَبْره تستمر الحكاية والنشيد .

وفجأة ، ينقلب سُودُ الدراويش بيضاً ، إلا إثنان : الشيخ الأكبر الذي لا يتزحزح من مكانه تحت الضوء ، وآخر ، هو

مريده الأقرب الذي سيقف لصقه ، بعد أن يُقَبِّل يديه . وهو سيكون المَعْبَر إليه .

ومنذ أن يصبح الدراويش بيضاً ، يبدأون بالمرور أمام «الشيخ الأكبر» تحت مراقبة مريده الذي ظل أسْوَدَ ، الصارمة .

هذه المرة ، لا يمشون وهم يمرون أمامه ، وإنما يدورون . يدورون ، أولاً ، بهدوء ، ومنذ أن يتجاوزوه يأخذ دَوَرانهم بالإشتداد . وتبدأ أعناقهم بالمَيَلان . وتلين جذوعهم ، وكأنها مَجْبولة من طين . من طين قونية الأحمرالمَختلط بتِبْنها اللامع كالفضة .

طيلة الوقت ، يظل «الشيخ الأكبر» واقفاً في مكانه . لا يحرك إلا نظراته التي تُلاحق الدائرين . مريده (الذي ظل يلبس الأسودم مثله ، كما قيل من قبل) هو الذي يصير يمشي بينهم . يتفقَّدهم واحداً واحداً . يُقَدِّر شدة انجذابهم من درجة مَيَلان الرأس ، وانحناء الرقبة حتى تُلامس الهامةُ الكتفَ .

فوقهم يهيمن «جلال الدين الرومي» مُذَكِّراً مَنْ نسيَ بصمت : «فكرك فيكَ يكفيكَ» .

وفجأة ، يُعَنْعِنُ المنشد الذي لا نرى إلاّ صوته ، مُردداً : «طوبى لمن رآني ، ولمن رأى مَنْ رآني» .

ويصدح الناي المرافق له آسفاً ، وكأنه يقول : الصوت لا يأتي بالمعشوق الذي وَلّى ، وإنما يحاول اللحاق به ، عبثاً . فما الموسيقى إلاّ زفرة الروح التي أعجزها الحُب ، وذابت ، ولكنها لم تَيْأس ، بعد .

ومن جديد ، يأتى الصوت ، صوت المغني الواله الذي لم يعد أمامه إلا الاستِجْداء ، استجداء عطف المعشوق بعد أن خرج الأمر ، كله ، من بين يديه : «العشاق الذين يموتون عن وعي ، يذوبون أمام المعشوق وكأنهم السكر» .

ويمر الوقت وكأنه الدهر .

لا صوت سوى حَفيف أثواب الدراويش البيض تطير مع الهواء الذي يملأ مسرح الرقص . ولا نرى سوى التواء أعناقهم التي لانت بفعل الحب ، وهم يتلاحقون ، دائرين عَكْس عقارب الساعة . وأتساءل مأخوذاً : حتى اتجاه الدوران محسوب؟

لكن المنشد لا يدع لي مجالاً للإجابة (وهل أعرفها) ، لأنه صدح من جديد : «يا مَنْ ولدتم عندما وصلتم إلى الموت ، هذا هو الميلاد الثاني ، ألا فلتولدوا ، فلتولدوا» .

التكيـــة

تكيـة مـولانا جـلال الدين الرومي في «قـونيـة» آية في الروعة . الحجاج يتسابقون لدخولها . منهم مَنْ يبكي صامتاً . ومنهم من يكفكف دمعه بلا اهتمام . منهم مَن اربَدَّ وجهه من شـدة الغمّ . ومنهم يظل واقـفـاً في مكانه طيلة النهـار ، وهو يحدق في الفضاء . يحدّق بإبهام كليّ وكأنه يبحث عن روح هائمة فوق رأسه . وثمة أمرأة تقعي باكية وكأنها فقدت طفلها ، للتَوّ . آلاف البشر المتخالفين يتآلفون في فضاء جلال الدين الرومي ، وكأنه الجامع الأكبر لكل هذه الحشود .

البساطة الرائعة في التكية ــ المتحف هي التي تقربها من القلب . لا أُبَّهـة ، لا فـخـامـة زائدة عن اللزوم ، لا زخـرفـة متعجرفة ، لا حواشي منسوجة بقصدالجَذْب ، ولا أحجار كريمة ونادرة ، بل قـبـعـات الدراويش الذين داروا في هذا الفلك العميق ، وعمامات السادة الذين تعاقبوا على السيطرة على هذا الفضاء الآهل بالإنشاد والمحبة . كل ذلك محفوف باللونين : الأخـضـر والأبيض . بآيات من القـرآن الكريم ، وبمقـاطع من «مَثْنَوى» ، ومن «فيه ما فيه» . أخيراً ، يتصدّر المشهدَ النايُ

الحـزين المُلَوَّع الـذي لايكف ، عَـبْـر صـوته المذهل ، عن البـحث عَمَّنْ نأى ذات يوم .

انتبه! أنتَ في حضرة مولانا .

بين الخَلْق المأخوذ بروعة المكان ، والمسْتَسْـلِم لجلال الكائن الذي جاء ليتبارك به ، أقف ، أنا الآخر ، مفكِّراً بصمت : «ما يثير التساؤل هو السؤال» . أقول لنفسي ، وأنا أدعها تسرح بين الحُشـود التي لا تشـبع من «شـرب الريح الذي يمر فـوق الضريح» .

أحاول أن آربط الأشياء علّني أصل إلى النقطة الأساسية : «كيف أنتقل جلال الدين من مجرد معلّم بسيط للصبيان ، إلى مَنْ صار ، لاحقاً ، إليه»؟ وما هو دور «السؤال» الذي ألقى به «شمس الدين التبريزي» ، القَلَنْدَريّ ، ناقلُ دلاء الماء الذي لم يكن يعيره المحيط اهتماماً ، ولا هو كان مهتماً بمَنْ لا يهتمُّ به . كان يبدو غير مبالٍ بمَنْ حوله من الخلق ، وكأنه لم يكن ينتظر إلاّ الفرصة السانحة ليلقي بسؤاله على مَنْ هو أهل له : على أحَد لا زال قابلاً للدهشة .

أُفكِّر : «سُؤال شمس التبريزي لجلال الدين الرومي ، هو المثير» .

والإثارة تكمن في طريقة الإرتكاس «العُظمى» التي تجلَّتْ عند جلال الدين ، ولامبالاة التبريزي المغالية بها .

فإذا كان «السؤال» مهمّاً وجوهرياً ، فعلاً ، فإن الإجابة

الصريحة في حضرة المريدين الذين كانوا يتحلّقون حولهما ، آنذاك ، تكفي . وقد لا تكون ضرورية ، أصلاً ، لأن «سؤالاً مثل ذلك السؤال لا يستحق الإجابةعليه ، أحياناً» . وإذا كان «السؤال» هو «أي سؤال» ، وهذا ممكن ــ حتى ولو كان يتعلّق بجوهر الوجود أو الاعتقاد ــ فلماذا الصدمة ، والإغماء ، والإختلاء لأسابيع في «غار قونية» المُبارك؟

لكن السؤال ، كما أتصوّر ، لم يكن «سؤالاً» .

كان تحريضاً وجودياً .

كان «تَبْصيراً» بمحنة الكائن ، وعبثية حياته . وبخاصة ، عندما يكون مثل «الرومي» محاطاً بجيش من المريدين البُلَهاء ، أو الذين يتراؤون هكذا لشمس التبريزي . و«شمس» ، لابس الرُقْعَة ، أدرى الناس بحقيقة هؤلاء الباحثين عن «لُقْمة العلم» . ويكاد يقيس ، ولا بد ، حدود تفكيرهم ، ويحسب تمام الحَسْبَة عدم صلاحيتهم «للطَفْرة» : للانتقال من حال إلى حال ، وفي غَمْضة عين .

هؤلاء ، كلهم ، كانوا ، بالنسبة إليه ، كذلك ، إلاّ واحداً : هو المسئول .

و«الإغماء» كان علامة .

علامة الاستجابة الفورية لهذا التحريض «الإلاهيّ» .

هذا التحريض الذي يبدو ، في ظاهره ، بريئاً ، وهو ، في الحقيقة ، صاعقة . صاعقة لم تكن تنتظر إلا لحظة انفجارها ،

وفي قلب «أحد الناس» . وهذا الأحد كان «جلال الدين ، البَلْخيّ ، القونيّ ، الملقَّب بالروميّ» ، مولانا الذي قال عنه «الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي» عندما رآه يمشي وراء أبيه في دمشق : «سبحان الله! محيط يمشي وراء بحيرة» ، كما صار معروفاً .

المحيط إنْخَضَّ ، إذن .

وسبب انْخِضاضه قشَّة سؤال ألقى بها العارف بخفايا النفوس : شمس التبريزي . لكنه لمْ يُلْقِ بها صدفة . لا بد أنه كان يُخطط لهذا «الحدث التاريخي» منذ أشهر ، وربما منذ سنوات . لا بد أنه كان ينتظر«إلْهام الصدفة» الذي يجعل الكائن كالسيف يقطع «الوضع» دون اهتمام بعواقب الأمور . ولمْ يُلْقِ بها على «الرومي» منفرداً ، ولا وجهاً لوجه ، بل وَسَّطَ البغْلة بينهما ، وفي حضور المريدين . قالها ، إذن ، «على رؤوس الاشهاد» .

وكان «جواب» جلال الدين الرومي أعمق الأجوبة : الإغماء .

كان أعمقها لأنه لم يكن «كلاماً» يرد به على كلام ، وإنما «حركة» . حركة تستوعب الكلام ، كله . تنقله (الرومي) من علُوِّه (ظهر البغلة) إلى دُنُوِّه (على الأرض) .

وإذا كان الكلام «بَسْطَة» في الفكر ، وَلَحْظويّ المرور ، فإن هذه الحركة ثلاثية الأبعاد . تقصر ، أو تطول ، كما يشاء المغْمى

عليه . وهي تتضمّن طوراً من الوعي ، ومشهداً ، ودلالة . ولها استدامة أو هي ذات حَيِّز وزمن . وإذْ بدتْ مدخلاً ، فهي يمكن أن تصير ، أيضاً ، مخرَجاً .

وفي حال جلال الدين الرومي ستكون (حركة الإغماء ، هذه) تعبيراً عن لحظة الانتقال من طور العقل الاجتماعي العمليّ إلى طور الإدراك العميق لبؤس الوجود وعبثية الاستمرار في الحياة على نَسَق واحد . لقد جَسَّدَتْ ، بشكل ما ، نزعة التعالي على «الوضع السيّء» ، وضرورة التخلُّص منه .

إنها القطيعة المطلقة .

قطيعة مع كل ما كان ، ومع ما سيكون على شاكلته ، من بعد . لقد بدتْ (حركة الإغماء المُفْجِعَة) مثل لحظة تحدٍّ وجوديّ لا يقبل الاستيعاب ، ويكاد يعلن «التخلّي» عن «كل شيء» ، من أجل الحُب الوَليد .

وقَبِل «شمس التبريزي» التحدّي .

وعلى الفور ، إختلى «بجلال الدين الرومي» ، وتَعاشَقا .

جمعْتُهما ، بشكل منهجيّ تقريباً ، محنة الحبّ ، وضرورة الْتِماس العطف من الآخر ، والاستمتاع بإعلان الوجد به ، والشغف .

لم يعد يهمُّهما أحد في الوجود ، ما عدا «رب العاشقين» الذي سيختلط شغفهما به بشغفهما ببعضهما . وسيؤكِّد نواح الناي ذلك ، ويكرّسه «الرقص المتعالي» حتى الوصول إلى

«ذروة الوجد» ، المُصاحِب للناي .

وبدأتْ مرحلة : «فكركَ فيكَ يكفيك» . مرحلة تجاوز المراجع ، كلها ، نحو المرجع الأعلى الوحيد : الحُب .

لقد شغَفَه «التبريزي» حُبّاً ، كما شغف «يوسف» امرأة العزيز ، فَخَرَّ مغشيّاً عليه .

فعلى الكلام لا تُجدي الإجابة بكلام آخر .

وكأنني أسمع «الرومي» يردد في أعماقه : شكراً لك لأنك ساعدْتَني على أن أعرف أنني أخطأتُ .

و«شمس» يقول : الكبار يفتحون الطريق ، والصغار يتبعونهم .

في الظلام الشفيف لـ «قونية»

في الظلام الشفيف لقونية ، يشربون الشاي في الطرقات ، وأفعل ، مسروراً ، مثلهم . أمشي ويتطاير الوَحْل حولي بعد أن يَنْعَجِن تحت قدميَّ . تَشُعُّ نيران موقد الحطب الذي أشعلوه . ويقود اللهب الذهبيّ خطايَ مثل فراشة رأت ضوءاً . بلا مزية ، أختلط بهم ، وكأنني أعرفهم ، أو لكأنهم أصدقاء طفولتي التاريخية : الشيوخ المقيمون في العراء ، حول ضريح «مولانا» .

مطر ، ونار . شاي ساخن أسود . لا أحد يتكلّم لغة الآخر ، ومع ذلك ، عيوننا ، وحدها ، تكفي للتفاهم . نتفاهم صمتاً حول كل شيء ، حتى عندما يريد أحدنا أن يدفع ثمن الشاي . نكاد أن نَلْتَفَّ على بعضنا من شدة البرد . البرد في الخارج قاسٍ ، ويزيده البَلَلُ قسوة . لكن لَهَب الإيمان عندهم ، ونار الفتنة عندي ، يتكفّلان بكل شيء : يجعلاننا أقوياء .

هكذا هي الحياة تمضي بلا ثمن باهظ ، أحياناً . وأحياناً ، لا تحتاج إلاّ إلى مبررات صغيرة لكي تُعاش . ومهما ادَّعيْنا عكس ذلك ، فالعكس ، دائماً ، هو الصحيح . قدَّس الله سِرَّ مولانا .

في الظلام الشفيف لقونية ، أسير وحيداً . أسير وئيداً وكأنني أتذوّق الأرض بقدميَّ . من المدينة العتيقة إلى «كلتور مركزي مولانا» (مركز مولانا الثقافي) ، حيث سيعقد الدراويش الدوّارون أمسية جديدة ، أمشي بمتعة ليلية لا حدود لها .

البرد الليلي ، هذه الليلة أيضاً ، يشبه بَرْد «الجزيرة» التي تَنْبَطح تحت أقدام الأناضول . وهو مثله قارس وجاف . يصفع الجلد كأمواس مجهرية ، تنبثق ، فجأة ، من أعماق الكون بعد أن كانت مَطْويَّة في مخْبأً ما . لكنه لذيذ . أمشي ، برغم ذلك . أريد أن أدرك ما هي هذه «القونية» التي تفعل ، اليوم ، كل هذا ، بعد ما فعَلتْه بجلال الدين الرومي ، وبشمس التبريزي .

أُلوف الناس تتغالب في الطرقات ، راجفة تحت البرد ، برد كانون المجنون ، وقد وصلوا من شتى أنحاء الأرض . لكأنه حج صغير يحدث هنا والآن . وقونية المَفْروشة في السهل الأناضولي العارم ، لا تجهل ما تفعل ، لا من قبل ، ولا الآن .

كلما اقترَبْتُ من المركز ، تتضاءل ضجة المدينة العتيقة ، إلى أن تختفي تدريجيّاً . ولا يبقى حولى ، في أول الليل ، سوى هَمْس الظلام الآسر . الظلام يتكلّم . له لغة بَكْماء ، لكنهامفهومة . وأحسُّني أسبح في فضاء الليل القوني وكأنني في بحر .

هنا ، لا يسقط الظلام عمودياً على القاع ، وإنما يتدَوَّر في الأفق البعيد قبل أن يُلاقيها . هو الآخر يُشَكِّل قُبَّة هائلة الحجم

تغطّي الكون الذي يبدو شديد المحدودية ، منظوراً إليه من حيث أقف . ظلام قونية يبدو غير مرتبك ، ولا يخشى الأضواء البسيطة التي تحاول أن تجد دَرْبها الضيق ، فوق الأرض ، بالرغم منه . إنه جزء من الوجود ، هنا . وهو محْبوب لذلك . وأكاد أفهم ، لأول مرة ، بشكل فيزيقي ، قول «المتنبي» : «وأمشي في ظلام الليل وحدي / كأني منه في قمر منير» .

في الظلام الشفيف لقونية ، تتجاذبني العواطف والانفعالات . أدرك أن الكائن ليس شيئاً آخر سواهما . وما العقل البليد الذي تركض الانسانية ، منذ الحضارة الدينية الأولى ، وراءه إلا لحظة اكتمالهما . لحظة وصولهما إلى ما يشبه المطلق : مطلق الرغبة التي لا تخلِّف وراءها ، عندما تتحقق ، سوى العدم .

وما علينا إلا أن ندور ، وأن ندور .

فلسفة ودين

الأديان التوحيدية الثلاث ولدت في الشرق . في الشرق العربي بالتحديد . وأكاد أقول والفلسفة كذلك ، باعتبار أن «اليونان ، و«الأناضول» يشكلان ، كما أرى الآن ، «سقف» ذلك الشرق الغنيّ بتراثه ، وميتولوجياته .

ولم يفعل «الغرب الحديث» إلاّ ربط هذه المسلمات الكونية العظمى ، أو التي أصبحتْ كذلك ، بمفهوم السلعة والربح . أو ، على أفضل الوجوه ، وضعهما تحت تصرّف هذا المفهوم القديم الذي لا يني يتجدد . وهو ما يجعلنا اليوم ، في حيرة من أمرنا : مَنْ نحن؟ وإلى أيّ كون ننتسب؟

لكننا عندما نتعمّق في المفهوم الغربي للكون ، نكتشف مدى البذاءة واللامبالاة فيه . ونرى ، مذهولين ، مدى الخراب الذي يلحق الكوكب الأرضي برمته من جرّاء هذه النظرة المحدودة ، الشديدة الوقاحة ، المبنية على«مفهوم السلعة والربح» . ومع الأسف ، لم يجد العرب ، في العصر الحديث ، إلا الإنغماس الآليّ ، غير النقدي ، في خضمّ هذه التجربة الغربية التي وصلتْ ، عملياً ، إلى نهايتها منذ قرن ، تقريباً ، ولم يبق

منها ، اليوم ، إلا سيّئاتها ، كما يقول «ماركس» . وهو ، تماماً ، ما يقصده بتوصيفه النقدي : «إن هذا العالم أصبح قديماً» .

جَلالة الكائن ، كما صرتُ أرى الآن ، بعض من جلال الكون . وهو عندما يجهل هذا البعد يتردّى إلى مجرد سائق لآلة عملاقة في صحراء بلا علامات . إلى أين تراه سيصل؟ هذا ما كان يمر بذهني ، وأنا أدور في «الظلام الشفيف لقونية» : الظلام الذي يجعلك ترى نفسك وكأنك خرجْتَ منها ، للتَوّ .

للمرة الثانية ، سأكون مضطراً إلى «شقّ طريقي» وسط الحُشود ، لأتمكَّن من العبور من أجل حضور مشهد الدراويش الدوّارين . هذا المساء ، أيضاً ، أريد أن ألْتَهِب ، من جديد . أريد أن أصير «ذهباً» ، فقد مللتُ بلاة الحديد .

«جلال الدين الرومي» كان يحكي . كان ينشد أشعاره ، بالأحرى ، ومريده يكتب . لم يكن يراجع ما يقول . لم يخطط ، ربما ، لما صدر عنه من أشعار . لم يكن يهمه أن يسر السامعين ، ولا أن يملأ قلوبهم بالكآبة . كان يتكلّم عَمَّنْ ، هو . عمّا يشعر به . يقول ما يحب أن يقوله مهما كانت صنوف القول وتشعُّباته . يعرف أن الحُبّ مفترس . وكل ما كان يأمله هو أن يَسْمَع الحبيبُ قوله . أن يستوعب كارثته . أن يفهم المغزى الذي حطَّه في كلماته . علّه ذات يوم يعود .

لم يحط ذلك من قَدْر أشعاره ، وتجلياته . لم يَنْسَها التاريخ ، ولم يغفل عنها الآخرون . لأن جلال الكلمات يكمن

في الصدق الذي يضعه فيها منشدها ، كما يقول «أبو العلاء المعري» . وجلال الدين الرومي كان يحيا ، وكانت حياته تَتَخَثَّرُ في كلمات .

الأصل ، إذن ، هو القائل ، أو الشاعر في حالتنا هذه . فهو الذي يرسي قواعد الكلام . ويملأ كلماته بالأفكار التي يريد لها أن تصل إلى السامعين ، أو القراء . وهو الذي يُحدد جهة سَيْرها في التاريخ .

للكلمات مواقف وأوضاع .

وهي تكون معنا أو ضدنا . لا مجال لتجاهل ذلك . هذا ما أدركه الرومي خلال الغيبوبة التي اعترتْه بفعل الحب . وأزعم أن الشاعر ، (أو المتكلِّم) ، هو الذي يمنح كلماته طاقة العبور ، ويجعلها تشعّ مثل أقمار بعيدة . وهو الذي يحدد نقطة وصولها ، ولو بعد مئات الأعوام . تذكروا هوميروس ، وألف ليلة وليلة ، والمتنبي ، (و . . .) . .

عَبْر الإنشاد الديني المفعم بالوجد والعاطفة ، كان الرومي يحكي قصة حبه لشمس الدين التبريزي . لكن اختلاط العاشق بالخالق ، والمعشوق بالمخلوق ، هو الذي جعل الأفئدة تتبلبل . وهو ، ربما ، الذي حرّض المريدين على قتل «شمس» ، وإلْقائه في «غيابة الجب» . ولم «يلتقطه بعض السيّارة» كما هي حال «يوسف» ، وإنما ظل وحيداً في عتمته . لم يهتم به أحد ، ولم يكتشفه غير حبيبه .

هذه الواقعة «الشعرية» المميتة التي ارتبطتْ بالعشق توحي بأكثر من سؤال، وتقترح أجوبة لاحصر لها، ولا أهمية، أيضاً.

العشق، الشعر، الوجد، الموت، الدوران في المكان، الاتحاد المأمول بالمعشوق الأول، الأعلى، الذي لا يُطال، في غياب المعشوق الأرضي الذي كان في متناول القلب والعين، هو الذي ملأ رقعة «الرومي»، مثله مثل غيره من الصوفيين الكبار، بالمواقف والمواجد. وهو الذي، من حيث هو مأساة حياته، كان جديراً بأن يعطي هذه الحياة معنى جديداً. ويجعل منها الحياة التي أحببناها فيما بعد.

بمَ يمكن لنا أن نفكر ونحن نستعيد هذه المفهومات والأقانيم؟

الكائن ليس معصوماً عن الحب. وهو لذلك مهيّء للوقوع في «الخطيئة»، كما يفكِّر الخاطئون.

ولكن ما هي الخطيئة، في هذه الحال، إنْ لَمْ تكن هي الرغبة؟

وليس للرغبة حدود.

طقوس الرقص

الرقص المولويّ رقص طقوسيّ .

رقص له نظام صارم ، ومفهوم منهجيّ عن الحركة والصوت والسكون .

التحية لها مكانة أساسية في سياقه . وتراتبيّة الأعضاء لها شأن كبير في التمهيد له ، وفي إنجازه . ذلك هو رقص الدراويش الدوّارين الذي ابتدعه مولانا جلال الدين الرومي تعبيراً عن الفَقْد الذي لا يُعَوَّض . إنه خُلاصة الرحلة نحو الحب الأسمى الذي لا يمكن التعبير عنه إلا بالصوت (الموسيقى ، الناي) ، والحركة (الدوران في المكان) والسكون (الإغماء) .

«الشيخ الرئيس» آخر مَنْ يدخل حلبة الرقص ، وأول مَنْ يغادرها . إنه شيخ العارفين . وهو مركز «الحلقة» ، وحوله تدور كل الحركات .

موضعه يقع تحت بقعة ضوء (كما قيل من قبل) . عليه سجادة صغيرة . فوقها يتربّع الشيخ الجليل صامتاً . على يساره يجلس الدراويش حسب ترتيب واضح ، ونظام منهجي محدد .

اللون يلعب دوراً أساسياً ، في إنجاز الرقص المولَويّ .

في البدء كلهم ، كل الدراويش ، سود . ومنذ أن يبدؤوا الرقص يتحوَّلون إلى بيض . ولا يحتفظ بالسَواد إلا الشيخ الرئيس ، ومريده الأقرب ، وهو مراقب الرقص والراقصين ، (كما سلف) .

الشيخ الرئيس يلبس العمامة ، أما الآخرون فيلبسون الطرابيش . وكل درويش يعرف مكانه في الجلوس ، وفي الرقص الدائري ، وبالتالي قربه أوبُعْده ، من الشيخ ، وعنه .

قبل أن يبدأ الدراويش الرقص يمرون أمامه واحداً واحداً . يمرون مكتَّفين ، وهم ينحنون بتبجيل . ولا يبدأ أي منهم الدوران إلا بعد تحيته والمثول أمامه ، وكأنه يطلب منه السماح . وفي أثناء هذا الطقس يراقبهم المريد الذي يظل يلبس الأسود مثل الشيخ . يراقبهم بعناية ، ويتفقّد كل ما يبدر عنهم من حركة ، أو انحناءة ، أو نَفَس (فلا صوت لهم ، حتى وهم يرقصون) .

أما الموسيقيون ، وعازفو جوقة الإنشاد ، فيظلون بعباءاتهم السود ، جالسين ، أو واقفين . وهم أيضاً يُميلون برؤوسهم إلى الكتف الأيمن ، مثل الراقصين ، وإنْ بشكل أقل مغالاة .

بعد كل فاصل ، يمر الدراويش الدوّارون ، مثل أول مرة ، أمام الشيخ الأكبر ، مُكتَّفين وهم ينحنون باحترام بالغ ، قبل أن يبدأووا الدوران الراقص ، من جديد .

طيلة وقت الرقص ، يظل الشيخ الأكبر ، ومريده ، واقفين . الشيخ ساكن بلا حراك ، لا يترك مكانه تحت بقعة النور ، أبداً . أما مريده فيتجوّل بحذر بالغ بين الدراويش الذي لا يرون إلا الغيب . رؤوسهم تميل بقوة إلى الكتف الأيمن . وهم يدورون حول أنفسهم ، عكس دوران عقارب الساعة ، حتى لا أقول : يطيرون . وأكاد أجزم أنهم لا يحسّون حتى بدبيبه (لا مشيه) بينهم .

ذلك ، كله ، ليس إلا تكنيكاً طقوسياً . ما معنى الرقص المولويّ ، إذن؟

الدرويش الطائر ، حتى لا أكرر : الدائر ، يوحي بأكثر من سؤال ، ويرسل إلينا أكثر من علامة .

كيف يمكن لنا أن نفسّر ذلك التعالي الصارخ في الحركة ، والهيئة ، منذ أن يبدأ الدوران حول محوره؟ كيف يتحوّل من كائن له ثقل وموضع إلى كيان يطفو فوق الأرض وكأنه يسير فوق ماء لا نراها ، وإنْ كنا نحسها تحت قدميه الطافيتين؟

ما أهمية الجسد الذي يصبح محوراً للدَوَران بالنسبة للراقص الذي يظل يتشبّث به (بهذا المحور) طيلة الوقت؟ وإذا كان «مولانا» ابتدع هذه المشقَّة الوجودية التي تلُفّ الجسد الانساني في دَوّامة بلا قرار ، دَوّامة قد تدفع به إلى لإنخطاف ، والإغماء ، والموت حُبّاً ، أَوَ لَمْ يفعل ذلك عن عِلم ، إنْ لم يكن عن خِبْرَة؟

هل كان يجهل عندما استبدع تلك الفوْرَة الحِسيّة مدى الخطورة في حركة جوّانية ، كهذه ، تتمظهر خارجياً ، بمثل هذا العنف المهدد للوجود؟

لماذ نحس أن الراقص الدائر حول ذاته التي تهذَّبَتْ ، ورَقَّتْ ، حتى صارت بلا ماهية ، يبدو لنا وكأنه يتآمر مع القَدَر ليرينا بذاءة وجودنا ، ومدى الخُمول الذي نرتع فيه؟ لكننا ، مع ذلك ، لا نركن إلى هذا الشعور طويلاً لأن متعة الرقص ، ومظاهر الإنخطاف ، يجعلاننا نتيه ، نحن أيضاً ، في غياهب وَجْد بلا حدود . وَجْد ، طالما تمنينا أن نسبح في أمواجه ، ذات يوم .

ما معنى انفراش الثوب الأبيض (الطاهر) حول الجسد الذي يصير عموداً؟ ولماذا يميل عنق الدرويش الدوّار بقوة ، حتى تلامس الهامة الكتف ، كما سبق ولاحظنا؟ ألأن انتصاب الرأس يعني ، بشكل من الأشكال ، تحدياً خفيّاً للمعشوق ، وبشكل أدقّ للمعشوق الأعلى ، للخالق؟ أيعني هذا المظهر «المُتَمَسْكِن» ضرورة التواضع الجَمّ الذي يجب أن يتحلّى به كل عاشق عالِم تجاوز الحَدّ : حَدّ التكَبُّر؟ و«التكَبُّر على أهل التكَبُّر عبادة» كما يقول «علي بن أبي طالب» .

ما معنى الصمت العميق المرافق لهذا الدوران الراقص ، هذا الصمت الملتبس الذي يوحي بشتّى الأصوات الجوانية التي تصير تتدفَّق في أخاديد الروح ، روح الكائن الذي مَلّ ضجيج الحياة الخائب؟

لماذا ليس للدرويش الدَوّار قَرين؟ لماذا يظل يدور وحده (وإنْ كان محاطاً بآخرين)؟ ألأن الرقص المولويّ، مثل الولادة والموت، مصير آخر للكائن، عليه أن يواجهه وحيداً؟

أنّى له بقَرين وقد غاب معشوقه؟ غاب مَنْ كان يرغب فيه، مرة وإلى الأبد، ولم يترك له سوى إمكانية البحث اللامجدي عنه. هذه الإمكانية المعدومة الجدْوى يمثلها أحسن تمثيل دورانه العبثيّ في المكان، حول محور قدميه، دون أن يتقدّم، أو يتأخّر. دورانه الذي يبدو حركة. لكنه حركة غاية في السُكون.

ثم ما معنى القُبَّة الجميلة التي يرقصون تحتها دائرين؟ أتمثل، ولو حلماً، قبة السماء التي يأملون أن يلجوها، ذات يوم، عَلَّهم يجدون فيها ما يأْملون؟

وإلاّ أين يمكن العثور على المعشوق الذي تجاوز حدّ الحُبّ: غاب دون أن يترك أثراً يدلُّ عليه؟

أفكار كثيرة، وأسئلة لا حصْر لها، وأجوبة بعدد الأسئلة وأكثر، ولكن كلها بلا أهمية: الأسئلة والأجوبة كذلك.

لماذا؟ لأن هذه الحركة العملاقة، الماجسْترالية، التي تتحوّل أثناء تأديتها إلى «ميتولوجيا راقصة»، هي خارج كل هذه الترّهات. وما علينا إلا أن نتأمّل الرقص صامتين.

صحيح أننا نرى المشهد، لكننا نظل خارجه مع أننا نحس أن أنفسنا تحترق فيه.

شَغَف القلب

عندما كنا صغاراً ، نتَقافَزُ في الفيافي القفْر كالظباء ، كان الكبار عندما يغضبون منا ، يصفعوننا بعنف . وعندما كان الواحد منا يبكي ، كانوا يُواسونه بلطف : «تكبَرُ وتنْسى»! وأكتشف ، الآن ، أن ذلك ، كله ، لم يكن إلا كذباً : «فنحن عندما نكبر نتذَكّر» . وإلاّ أية سقاية نفسية ، وأي انذهال ، تمدني بهما هذه «القونية» التي كان أبي يترنّم بها مَسْحوراً؟

أتراه كان «يعرف» شيخ قونية الجليل الذي جاءها من «بلخ»؟ أو سمع بمناقبه ، ولو بشكل غامض ، ومن بعيد؟ وتلك هي أخطر المعارف . نتَخَيَّلُ هَرَماً لمْ نرَه . تصوَّروا كم يمكن لنا أن نُضاعف حجمه وأبَّهته؟ كم بوسعنا أن نعطية من الأشكال والألوان؟ وكم يسعدنا أننا نستطيع أن نُباهى به الآخرين (أولئك الذين لم يسمعوا به ، أو مَنْ سمعوا به ولا يستطيعون أن يتخيَّلوه) لأنهم لا يعرفون كيف يُدَرِّبون مشاعرهم على استدْراج الأشياء اللامحسوسة ، والتعبير عنها بشكل مُجَسَّم وشبه اسطوري . هذه هي حال «قونية أبى» على قَدْر ما استطيع

أن أخـمِّن ، الآن . لكن هذا ، كله ، لا يغـيّـر من أمـر «رؤيتي» الشخصية لها شيئاً ، هذا النهار .

أترى قَصَّ عليه مسافرون آخرون الحكايات عنها؟ أم ذهب هو بنفسـه إلى «هناك» ، ورأى مـا أرى ، أنا ، الآن؟ ومـا همَّ الجواب؟ الأساسي في الوجود العاطفي ليس هو التأكُّد ، وإنما الحَـدْس . ليس رؤية العين ، وإنما شـغف القلب . ليس هو الضرورة التي تدفع بالكائن إلى أن يَدُسَّ أصبعه في النار لكي يدرك مـاهيتـهـا وطاقتـهـا على الحَرْق ، وإنما هي««استـمـلاك» التجربة الإنسانية المشتركة : «تجربة المحترقين» ، التي «قد» تقينا شَرَّ الحَرْق ، من جديد .

أعود ، مرة أخرى ، إلى تكيّة «مولانا» التي تشبه التكية «السليمانية» في دمشق . وزُوّارها هم أنفسهم زُوّار «الستْ زينب» في ضواحي الشام . بساطة الصَرْح هي أساس روعته . خُشوع الداخلين ، ولَوْعة الخارجين ، تشي بمقدار الإنحياز الوجداني العميق إلى المكان وصاحبه .

في مواجهة التكية ، أقف في العراء البارد صُبْحاً ، دون أن أُحاول الدخول . أريد أن أرى عن كثب ، ما كنتُ أتمنّى رؤيته عن بُعْد . للرؤية أسبابها ، وأنشطَتُها . إنها لا تكون ذات معنى ، ولا قيمة حقيقية لها ، إنْ لَمْ تُفَعِّل القلب ، وتعطي العقل نوراً إضافيّاً للإدراك . إذا لَمْ تتحوّل الرؤية إلى إبصار فهي عدم .

منذ القرون الوسطى ونحن مشغولون بهذه الإنشغافات .

إنشغافات الكائن بالحب ، بالوجود ، بتجليات هذا الوجود التي لا حَصْر لها ، ومع ذلك يمكن جَمْعها ، كلها ، في «قَبْضَة الكف» ، كما يقول المتصوّفة . والإحساس بها برَجْفَة القلب . وفي غَمْضَة عين يمكن إبادتها . لكن الإنشغاف لا يحتاج إلى برهان . فهو برهان نفسه ، حتى وإنْ بدا ذلك ضد المنطق . وهل يضير ذلك أحداً؟

أمور كثيرة حدثت ، وتغيّرت مناهج وأساليب ، واختفت زُعامات وأسئلة ، وتبدَّلت أحوال وأقوال ، وهي (الإنشغافات) باقية . وسبب هذا الأمد الطويل من البقاء ، كما أتصوّر اليوم ، ليس الشعور الديني ، ولا الارتباط الغيبي بما لا ندرك محتواه ، وإنما هو«قوة الحب» ، أو «طاقة العشق» ، أو لا أدري ماذا . ومهما يكن السبب فإن مقاومتها للاهتراء ، وعبورها لهذا الزمن الطويل ، تثير الدهشة .

من أكثر التفاسير المعقولة ، برأيي ، هي قابليتها الكبرى للتأويل الشخصي . وعدم اهتمامها بالبحث عن دور اجتماعيّ مُوَحِّد وعقيم . تعطي لكل منا ما يرضيه ، وما لا يكفيه ، وهو ما يجعلنا نستمر في موالاتنا لها . وطالما احترمنا هذه القاعدة الانسانية الأساسية : لا تذهب أبعد من نفسك ، فليس ثمة ما يدعو إلى اليأس .

ولنتذكَّر أن «مولانا» قد سبقنا بقرون في هذا الموقف السامي من الوجود .

طوق الحب

بخشوع أقف في منتصف الطوق : طوق الحب الذي لا يُبْلى .

أمام ضريح مولانا أقف طويلاً والصمت يملأ قلبي . أرى المصلّين مأخوذين بعظمة المكان . عيونهم ذابلة . وشفاههم يابسة من شدة الظمأ إلى حُبّ قد يكون فاتهم إلى الأبد .

أُتابع الوقوف بلا حراك . يدي ، وحدها ، تتحرك . هي التي تُملي على لساني ما أقوله ، الآن . إنني مُلْكُ يدي . وأنا أحبها هكذا . هي التي أنقذَتْني من ضياع الذهول . وأصير أُتَمْتِم ، كما كان أبي يفعل ، من قبل : «تواضعْ أيها الفاني»! إذْ ليس لدينا ما نقوله غير هذا حيال ما آلَتْ إليه حياة مَنْ كنا نحسبهم خالدين .

أُفكِّر صامتاً ، دون أن أتحرك من مكاني : لَمْ تدُك حوافر الخيل العربية أصقاع العالَم لأنها كانت محمَّلة بالفرسان ، فقط . بل لأنها كانت تحمل معها «الكتاب» . وأي شيء آخر يمكن أن يخطر لكَ على البال ، وأنتَ ترى المُنَمْنَمات القرآنية

المُعْجِزة التي ابتدعها المشغوفون، معروضة أمام ناظريك في«متحف مولانا»؟

أُفكِّر: أفرح كثيراً عندما أتذكّر أهلي، وأنساهم، تماماً، عندما أكون في العالَم. وبين الذكرى والنسيان يتأرجح قدر الكائن مثل ثمرة على وشك السقوط. وهنا، في «قونية»، عاصمة السهوب الأناضولية، تذكَّرْتهم كثيراً. وأسعدتْني الذكرى، والإقامة في المكان.

المكان الذي لا يُسْعِد الكائن يُبْعِده عن روحه، ويدمِّر جوهر الوجود لديه.

أحس بهذا في كل مرة استوطن فيها أرضاً حتى ولو بشكل عابر. الأمكنة مثل الكائنات (أصرّ على إعادة هذه المقولة التي اعتبرها أساسية): ثمة مكان يجعلك «غريباً»، وآخر يجعلك «أريباً». أو بشكل أكثر حميمية، قريباً من القلب، من قلبك أنت بالذات.

ولأننا في كل الأحوال «غُرَباء»، حتى في «بلداننا الأولى»، فان المقصود بالغربة، هنا، ليس المعنى الجغرافي المألوف، وإنما: الغربة بمعنى «توليد البلادة العاطفية، والابتذال الفكري لدى الكائن». فهما يجعلانه غريباً حتى عن ذاته. لماذا؟ لأنهما (البلادة والابتذال) يقتلان الرغبة في الحياة، ويَلْجُمان أي شعور جميل يمكن أن يحس به الكائن، أو يمارسه، تجاه مَنْ، وما، تقذف به الظروف أزاءه.

الأمكنة قد تُوَلِّد الموت ، إذن ، وقد تهب الحياة .

وليس لنا من طاقة على اختيارها ، صغاراً ، وحتى كباراً ، إلاّ في القليل من الأحيان . لكننا منذ أن نعي خواصها الخطيرة ، هذه ، فما علينا إلا أن نُغادر ، أو نقيم . ولا يملك إمكانية الإختيار المميزة ، هذه ، إلا مَنْ أوتي سعة من الحلم ، وطاقة إدراك عظُمى ، وإرادة فعل قاسية تقارب «القطيعة» ، وإنْ اتخذت شكلاً أقلّ عدائية .

فالأمكنة ليستْ كالمعاني «مطروحة على قارعة الطريق» ، وإنما هي منسوجة مع المصير . إنها الحياة .

والحياة ليست قدراً ، ولا اختياراً ، وإنما اختبار (بالباء) .

الأشرم الصغير

في قلب قونية القديمة يُقام عرض احتفالي ديني هامشيّ ، مقارنة مع الاحتفال العاصف في «كولتير مركزي مولانا» المدعوم من اليونسكو ، ومن الهيئات والدولة التركية .

فيه ، في الأشرم الصغير اللاطيء على القاع ، والذي وجدته بصعوبة بالغة ، بعد أن دَلّني عليه صديقي بائع السجاد اللطيف في المدينة ، شارحاً لي مقاطعته الصارمة للاحتفال الرسمي ، فيه ، أقول ، سأندَسُّ بين جموع الله المتزاحفة كالنمل حول قطعة من البطيخ المرمي في قيعان «الجزيرة» .

جموع غُفْل متلاصقون باكتظاظ . يتجالسون وَرْباً لأن الفضاء لا يتّسع لأحد منهم ، وهم يَنُودون . كل منهم يحاول أن يتقرّب من فرقة الإنشاد التي تتربّع بأبهة في صَدْر الدار . بسرعة أطوف على الحضور ، مأخوذاً : أوربا الشرقية ، وبعض الأهالي ، ومن فارس ، وآسيا القصية ، ومن الأمصار التي لم أرها ، بعد ، وأنا .

أنْدَسُّ بينهم متوارباً . أدور بعيني من وجه إلى وجه . أريد أن أعرف من أي مكان جاء كل هؤلاء البشر المختلفين . لكن الوجوه

مملوءة بالرغبة في البكاء . والانخطاف العميق الذي يشغل الذات حتى عن خواصها الأساسية ، يجعلها غير مَعْلومة . مَنْ يستطيع أن ينفذ عبْر هذه الهيئات التي لا تريد أن تكون إلا صدى لمولانا؟ ولا يهمُّها هذا المساء إلا أن تدور ، وأن تدور . مع ذلك ، أحاول أن أُلاحق الإشعاعات التي تلقي بها أرواحهم بالرغم من كل شيء . أُلاحقها وأنا أغمض عينيَّ قاعداً على القاع .

ويبدأ الدرويش الأقصر ، ذو الرأس المُفَلْطَحة ، والقدمين العاريتين ، واليدين المليئتين بالرحمة واللطف ، يبدأ العزف بهدوء ، ومن ثم يزيد . ويبدأ الرَجَفان في الأجساد الجميلة . من الرُكَب يصعد حتى الكتفين . ويصير القاعد يهتزّ مثل قشة في مهب الريح . وحدي ، أظل جامداً مثل حجر مكسور . ولكن ليس لأمد طويل ، وهو ما سيثير دهشتي .

سريعاً ، تأخذهم حرارة الإيمان ، ورقة الموسيقى ، وجمال الإنشاد ، فيبدأون بالنَوَسان الواسع مثل «بَنْدولات» كونية عملاقة لا تستطيع أن تتوقف ، بعد الآن . وتأخذني الحُمَيّا ، أنا الآخر ، فأندمج في الحفل النائس ، بعفوية آسرة ، مثل طفل يعود إلى حضن أمه التي هجرها منذ زمن بعيد .

أكثر النائسين تحمُّساً هم أهل أوربا الشرقية ، وكازاخستان ، وأذربيجان . بلا تردد يَجْثون على الرُكَب ، مُبْرِزين أجسادهم الجميلة الرشيقة ، رجالاً ونساء ، ويبدأون الهمهمة ، والدوران ، والانخطاف ، وألسنتهم تلهج : «الله ، الله ، الله» .

بعضهم يصير يرقص قاعداً وكأنما أصابه مَسّ. وأدور بعينيَّ الذاهلتين على الحضور الذي تلاصَق حتى صار «كتلة». كتلة ذات ارتجاجات جوّانية عميقة تثير الاضطراب في قلب مَنْ لا يضطرب. أهذا، كله، بفعل «مولانا»؟ ولكن، بلى! هذه السِحَن المشدودة مثل سيوف قاطعة، وهذه الرؤوس التي غدتْ، فجأة، بلا عيون، بلا «عيون تقليدية»، ومع ذلك يقودها إبْصار داخليّ شديد الوَهْج، لا يُخطيء، هي الدليل الأكبر على «تفاهة البُرهان».

وأدع نفسي تتمادى في انزلاقها الذي لا يُقْهَر. أنظر. لقد قطعوا القارات، وجاؤوا، لستُ أدري مِنْ أين، لينوسوا هذا المساء، بشَغَف، في «قونية» التي أصبحتْ كونيّة. لماذا لا أَنوس، أنا الآخر؟

وتأخذني الحال، فأصير أبكي. أبكي وأنا أهتَزُّ خلفاً وأماماً مثلما كنتُ أفعل في المدارس القرآنية على حدود بادية الشام. أعرف أنني أعود إلى «طفولة البشرية» المليئة بالاستلاب والروعة، لكن ذلك لا يقلل من أهمية اللحظة، ولا من نفوذها العميق، شيئاً.

الكل غُموض. وحده، الطفل القاعد في حضن أمه، يلاحق بعينيه الصغيرتين يدي التي تكتب. ويرى، مذهولاً، إلى سَيَلان المخاط والدمع المختلطين فوق وجنتيَّ. ويصير يبكي، هو الآخر. فاضطر إلى تنظيف وجهي، دون أن أتوقف عن

الاهتزاز ، ولا عن الكتابة .

الآن ، يبـدأ بعض الرجـال بمدّ أجسـادهم نحـو السـقف . يقومون ولا يقعدون ، من بعد . يتابعون ، قياماً ، حركاتهم التي أصبحتْ أشد عنفاً : لكأنهم يتحاربون وأنفسهم . حيث يصير اللَطْمُ أقسى ، والاهتـزات أعنف ، والإنحناء أشـدّ . وتظل عيونهم ، بالرغم من ذلك ، مغمضة عن الخارج ، منفتحة على الداخل المليء بالهذيان .

أما النساء فيبقين على جلوسهنّ ، وإنْ كان اهتزازهن يصبح أكثر مغالاة ، وكأنما بدأت تشوبه لَوْثة خارقة من الشغف والأنين .

فجأة ، يقف الآخرون ، الذين ظلّوا إلى الآن قاعدين ، وقد أصابهم المَسّ أيضاً ، نصف وقفة (لأن المكان لا يتّسع لأكثر من ذلك) . وتبدأ أطرافهم بالتحرُّك يميناً وشمالاً ، بشكل عنيف . لكأنهم وقعوا ضحية انخطافهم ، وهم لا يريدون أن ينتهوا منه ، بعد اليوم .

من أطرافهم يبدأ الإهتزاز ، إلى صدورهم يرقى ، ومن بعد إلى ظهورهم ، وفي أكتافهم يستقر ، قليلاً ، قبل أن يقفز إلى الرؤوس . يذهبون بنَوَسانهم بعيداً ، ويئوبون قريباً ، وأعناقهم تهتزّ بقوة وكأنهم يريدون أن يخلعوها . يُرافق ذلك الومض الجسدي العاصف ، ويَلُفُّه ، عزْف موسيقيّ «ترانساناليّ» يخطف القلب .

ولا نعود نسمع سوى الهَمْهَمَة : «الله ، الله» .

دخلت وحشياً، وخرجت صوفياً

كانوا يغمضون عيونهم ، وكنتُ أفتح عينيَّ . أفتحهما لأراقب وأكتب .

أحسست أن ذلك يخرّب متعة «الانخطاف» ، لكنه ضروري للتأكّد من أن الأمور تسيركما هو مرسوم لها . أخيراً ، ينفلت الزمام مني فتبدأ عيناي بالإنْغِماض العفوي ، وأنا أُتابع الموسيقى الداخلية التي تملأ القلب بالإرتعاش . وما كان مجرد هَسيس ولُهاث ، أصير أسمعه آهات منطلقة من الصدور ، يصاحبها تَحَسُّر حارق نابع من أعماق النَفْس . النَفْس التي تعتقد أن الخطيئة تقف لها بالمرصاد . فهي قد تخطيء الآن ، إنْ لَمْ تكن قد أخطأَتْ كثيراً من قبل .

في هذه اللحظات تملؤني رعشة أخرى : رعشة الدمع المنبجس من عينيَّ بعفوية السَيْل (وهو ما لم أحسه قبل قليل في حالة مشابهة) . أصير ، أنا الآخر ، أبكي صَراحاً . هكذا سأحسني ، واحداً منهم بلا مزايا أو عيوب ، أفكِّر . كائن مملوء ، هو الآخر ، بشعغف غير محدود ، وتحرِّكه رغبة عارمة في إزاحة

كل عائق أمام همجية العواطف التي لم يعد يوقفها حَدّ ، أو يكبِّلها ناموس .

«عندما حمي الوطيس» ، شَقَّتْ الجَمْع فتاة سمراء ، شديدة الجمال ، شعرها كثيف ومكشوف ، انحنت أمام الشيخ ، وقام لها مريده مرحباً . وقبل أن تهمّ بالدوران ، ناولها المريد نايأ جميلاً كانت قد جلبتْه معها ، وبدأت تعزف .

أصاب الحضور هياج شديد حتى صاروا قياماً ، كلهم ، وصرتُ كذلك . عزفَتْ بشغف وانهماك . لكأنها تنادي الله ، متوسِّلَة إليه ، كي ينقذ روحها من الضلال ، ويعطي جسدها ما يستحقة من نِعَم ومسرّات .

تَكاتَف الجميع ، إلا أنا . بقيتُ فَرْداً حاضناً دفتري وقلمي يكتب ما لا يمكن التعبير عنه . لقد بدَتْ مقاربة تلك الحال ، أو بشكل أكثر دقة : محاولة المقاربة لها ، تتطلَّبُ كثيراً من البراءة والإنحياز . تتطلَّب أن تَقْبَل ما ترى وكأنه الحقيقة . انْمَحَتْ ، تماماً ، الفاصلة اللامرئية بين الواقع ، وبين ما تحس به . تلك «الفاصلة النَقْدية» الضرورية التي تحمي الكائن من الإندماج اللامنطقي بما ، وبمن ، يحيط به ، دون حذر .

صرت تحس أنك ، أنتَ ، كل شيء ، أو تكاد . أتوقَّفُ ، إذن؟ لا! أكتبُ ما أحس به . عليَّ أن أفعلها ، ما دمت قد قررت أن علاقتي بالأمكنة لا يمكن لها أن تتأصَّل في نفسي ، ولا في الواقع الذي «يُعنيني» ، إنْ لَمْ أكتبها .

بدأت أُدركُ ، في تلك اللحظات الخاطفة ، أهمية هذه العلاقة ، هذا التلاصُق ، هذا التكاتف ، وتلك الاهتزازات . لقد بدتْ لي وكأنها الدرجة القصوى من الاتحاد الآني ، المجّاني ، اللامُغْرِض ، بمَنْ يوجد ، بالصدفة ، قربك ، دون أن تهتمّ بأي بُعْد آخر . يلمسك ، وتلمسه ، وكأنكما تتلاقيان فوق غيم .

هذا التلاقي العفويّ الذي يوحي بعمق الوجود الإنساني ، ويعبّر عن طاقة حب غير مألوف حتى إزاء مَنْ نجهله ، ولن نلتقي به ، ربما ، من بعد ، أبداً ، ليس إلا «التذُوُّق الأول» لسعادة عفوية يحققها لقاء عابر ، بانتظار سعادة تدوم . سعادة اللقاء الأساسي مع المعشوق الأزليّ . مع «وَعْي الكون» .

أُغادر تَجَمُّع «المنشقّين» المتوترين وجداً ، بعد أن أبْكوني . أُريد أن أحضر ، من جديد ، الحفل الكبير في «كولتير مركزي مولانا» الذي تحتفي به ، وتنظمه (كما سبق وكتبتُ) اليونسكو والمنظمات العالمية ، والدولة التركية .

أمشي ، وأفكر ، في ليل قونية الجميل الهادىء : لَكَم يبدو العالم متّسعاً وشديد الاختلاف . أعرف أن ذلك ليس جديداً ، لكن أهمية مثل هذه الفكرة «البسيطة» ، المعروفة من الجميع ، هي انبثاقها غير المتوقّع في ظرف مثل هذا ، وإحساسنا العميق بها دون مبرر ، خارج اعتقادنا الشخصيّ الخاص . اعتقاد يبدو جديداً ، وهو عتيق .

أفكِّر : لحياتنا وجهان : جَماعيّ وانشقاقيّ .

ولقد كانت هذه هي الطريقة التي اتبعتها الحركات السياسية الاسلامية منذ البدء . تلك الحركات التي شَقَّت الحياة بهاتين الخاصتين إلى :

- قِلّة مؤمنة بوَجْدها ، ومنهجها ، ومستعدة للدفاع عن «خواصها» بكل ما تملك من مقوّمات . وهي تعتقد أن قِلّتها لا تعوِّضها إلا الشجاعة ، والإخلاص الأقصى ، حتى ولو أدّى ذلك إلى «خراب كل شيء» .

وتلك المغالاة كانت إحدى أخطائنا القاتلة .

- وكَثْرَة مطمئنة إلى عددها ، وعدّتها ، ومستقرّة عاطفياً ، ولها المنهج الذي يسود بهدوء ، ويدوم (إلى حد ما) . وتكاد لا تحسب حساباً لمن هم أقلّ منها ، إلا إذا آذوها . وكثيراً ما ترفض الحوار مع هؤلاء حتى ولو كان لمصلحتها .

وكان ذلك هو الخطأ الأساسي الآخر ، القاتل ، أيضاً .

أفكرِّ ، وأنا أدخل الصَرْح الكبير ، فيخلِّصُني المشهد المثير لتزاحم البشر من أفكاري .

شتاء الشمس

هأنذا وحيد في قونية .

ولكن ما معنى «الوحدة» في فضاء لا يكفُّ عن حَقْنك بالارتكاسات؟ أحب هذا الجو الغامض ، والذي لا يحتوي مع ذلك على أية فجيعة . يكفي أن تنظر حولك لتخترق أبصارك العالم وكأنه ورقة شفافة .

هذه العلاقة الواضحة ، والتي لا تحتمل كثيراً من التأويل ليست ، في الحقيقة ، إلاّ خدعة عظمى . إنها انتشاء «الصوفيّ» بوجده البريء أمامك ، وهو يعانق ، في الواقع ، روح الكون . يصعدالسماء ، ويهبط ، وأنت تراه ساكناً فوق الأرض . تراه هكذا لأنك ، فقط ، لا تستطيع اللحاق به . بحركاته الجوّانية المفعمة بالأمواج . لأنك لا تريد أن تعذّب نفسك التي استقرت نهائياً في جسدك العاطل عن الحب . لا تريد أن تعذبها بفعل مثل هذا لأنك لا تعرف ، أصلاً ، كيف يُمْتَحَن العذاب . العذاب الإبداعي لمن هم مثلك ، فوق القاع ، بلا إبداع .

إلى أين سأتوجه الآن؟

أتبع الشمس .

شمس الشتاء دافئة في قونية . الفضاء مكشوف على روعة الكون . و«الوجد» يمشي متباهياً من التكية إلى المركز الثقافي لمولانا . إنه هذه الجموع التي لا تكف عن التسَيُّر والانتقال . ولكن مَنْ منا يعرف ماذا نريد مِنْ «مولانا»؟

الخَفَر الظاهر على الوجوه ، والابتسامة الغامضة التي ترتسم على الشفاه ، تجعل الكائن يظن أن نهاية البؤس اقتربتْ فعلاً . وهو ما يعطيه الشجاعة لكي يأمل ، من جديد ، بعد أن مَلَّ الأمل . ويهُمُّ كَيْ يستعيد الثقة بذاته التي يحسها بدأت «تَتَعالى» بعد أن تدَنَّتْ إلى حضيض الهاوية : هاوية اللامبالاة بمصير الكون .

أُفَتِّش عن بُؤر أُخرى . بُؤر أرى فيها شيئاً آخر ، ولا بد أنها كثيرة في مثل هذا المكان . ولكن عَمَّ سأبحث وأنا لم أجد حتى نفسي؟ أصير أتكلم وحدي وكأني عديد . أتكلم بصوت عالٍ وأنا أتابع السَّيْر .

هذا النهار ، أبدأ المشي صباحاً . الشمس صافية وباردة . أتدَثَّر بكل ما لدي من هُدوم ، وأسير . أسير بلا وجهة محددة . هنا لاضرورة لتحديد الاتجاهات ، فالفضاء ، كله ، يقود إلى الله . وهو ما يعني أن تسافر في الكون مطمئناً ، مع أن للعالم وجوه لا تحصى . يكفي أن تظل ذاتك في يقظة ، وألاّ تقارب

الخديعة : خديعة نفسك قبل الآخرين . فأنت ، في النهاية ، لست إلا جزءاً من هذا الكون ، وإنْ خدَعْتَه خدعتَ نفسكَ .

أسير مفكِّراً ، في صباح قونية الجميل .

أدور حول متحف مولانا ، حول التكية الصامتة مثل قصر مهجور . الناس الذين يتبرَّكون بها لا حِسَّ لهم ، ولا صوت . من شدة البرد الكانونيّ سأكون مضطراً للدخول في أول مقهى أصادفه . أدخل ، وأنا استعيد قول أبي : «في كانون ، أقعد في بيتك ، لا تكن مجنون» . والجنون هنا هو السفر والرحيل . هو المشي في مناكبها بحثاً عن أسباب الحياة . ومع ذلك ، فالقعود في دفء البيت في كانون ليس محموداً ، دائماً ، وهو في أشهر أخرى مذْموم ، صراحة (كما كان يقول) .

أدخل «مقهى» ، أقول؟ لا! إنه نوع من الخانات العتيقة . بناء عال ، بحيطان قديمة متصدعة ، وسقف متعدد الألوان والمواد . بناء شاسع من الطين تدخله فتدخل جوف كهف تاريخي قد ينبثق منه ، في أية لحظة ، «حِنْفيش» مخيف . لكن هذا المكان هو تماماً ما كنت أبحث عنه . لماذا؟ لأنه لا سبب معقولاً للبحث عن الأشياء بعد أن نَلْقاها . الأسباب ضرورية ، فقط ، قبل أن نعثر على ما ، أو مَنْ ، نبحث عنه .

كهف عتيق ، لكنه دافيء .

في قلبه سأجد «صوبيا» الخشب القديمة التي كنت احتمي بنارها في صباي . صوبيا نحاسية ، هائلة الحجم ،

تتوسط المكان، مرسلة حرارتها إلى آخر الزوايا .

حولها يتحلّق رجال أشدّاء، لهم عيون جارحة كالبواشق . لا يستحون وهم يتطلّعون إليك بتمحيص . لكأنك جئت تسلب منهم شيئاً لا يريدون أن يتخلّوا لك عنه . «بواشق مفعمة بالجوع» تفكر في صمتك البارد، وأنت تحتمي من ارتجافك القارس بالنار . نار الصوبيا التي تعرف جيداً كيف تلْتَفّ حواليها . ليتطلّع البواشق، إذن . بواشق الأناضول المخيفون .

ثيابهم مليئة بالزيت والغبار . لحاهم لم تحلَق منذ أيام، وكأنهم تعاهدوا على ذلك . كل ثلاثة منهم يجلسون معاً حول طاولة خشبية مهزوزة . يقْعون على كراسي قزمة قصيرة الأطراف، منسوجة من القصب القاسي، وعليها مرّ الزمان الطويل .

أحس بعذاب الكراسي القزمة تحت وطأة جذوعهم المحشوّة بالعَضَل والضغينة . ضغينة مكشوفة لكنها ليست موجهة إلى أحد محدد بالذات . إنها ضغينة الحياة القاسية في الأناضول . ويذكّرني ذلك بـ«حَمّالي» أكياس الحنطة والقطن في «الجزيرة»، يوم كنتُ «عَجِيّاً» بائساً أمشي القفار بلا أحذية أو كلاسين .

يذكّرني! وتسعدني الذكرى . أريد أن تكون الحياة دائماً شديدة التغيّر والاختلاف . إذْ ليس لها أن تكون، دائماً، على

وجه واحد ، حتى ولو كان جميلاً .

وأكـاد أصـرخ : ها هي ذي طفـولـتي تتـخلّق ، من جـديد . هأنذا الآن وسط البشر الذين مـلأوا عيوني صغيراً . هؤلاء ، هم أولئك الرجـال العُـضَـلاء منفـرجـو الأفـخـاذ من شـدة الحَـشْـو ، بجذوعهم العريضة مثل جذوع ثيران الفلاحة في سهول الجزيرة الذين كنت أخشاهم صغيراً ، وأنا ، الآن ، مأخوذ بهم . كَمْ مَرّ على ذلك من أعوام؟ وكيف لي ألاّ أتحدّث عنه بسعادة الغائب الذي لا يعود؟

ما أسعدني في «قونية».

أخرج من «خان الشاي» . أمشي عشرات الأمتار ، وأتوقّف راجفاً . استنكف عن متابعة السَيْر . قسوة البرد في ضوء الشمس الجاف ، مثل «نور منكفيء»يدفع بي ، بلا مواربة ، للتدَفُّيء بمكان آخر . وعلى الفور ، ألج في «جحْر الشاي» الذي أُصادفه باللصق مني ، ولم أكن قد رأيته ، من قبل . البرد فتح عينيَّ على اتساعهما ، مثل «خيانة» غير منتظرة .

الجُحْر دكان صغير . متكسر الأطراف . محدود الفضاء . بلا أية نفحة جمالية . فيه صُفَّتْ بعض «الكراسي» القزمة . ذكَّرَتْني ، على الفور ، بكراسي «قهوة إبراهيم الحَمَدْ» في «الحَسَكَةْ» .

يومها كنتُ طالباً وبَئيساً . لم أكن أدخلها إلا برفقة «صايل» ، الشيخ المهيب ، ذي الحجم الملكي الذي يجعلك تنظر إليه قبل أن تنظر إلى الجدار الذي يقف لصقه . وكانوا يسمونه :«هيكلة» . فيه ، في تلك المقهى ، كان الرجال «يُوَقْرزون» مثل عصافير مرعوبة ، فوق مثل «هذه الكراسي» التي أُوَقْرز أنا عليها الآن .

كانوا ينتظرون في هذه الوضعية المعقدة طويلاً قبل أن يتكرّم عليهم «ابراهيم» بكأس شاي شديد الثُّخونة ، يضعها بتبرّم وهو يدير ظهره ، مبتعداً على الفور ، لئلا يسمع كلمة : «شكراً» ، تلك التي كان البدو (من أهلي) يستَسْعِدون بلفظها حتى بلا ضرورة .

كان «ابراهيم» صاحب المقهى ، المشهور بتكبّره وعجرفته ، يسترق السمع على الحكايات . ويُحَذِّر من الكلمات وكأنها «أدوات جارحة» لا يُحسن استخدامها أحد غيره . ومنذ أن يشتَمّ رائحة «حكاية» مثيرة ، يتدخل بلا إذن لكي يُقَطِّع الكلام إلى أشلاء مثل جزّار خبير . وكلما تمادى الحاكي ، تمادى هو في «التقطيع» إلى أن يفقد الكلام أهميته ، ويذوب مغزاه .

وإن تجرّأ أحد منهم وحكى كلاماً مغايراً ، أسكته ، زاجراً ، حتى قبل أن يدرك معنى ما يقول : «يا وَلْ! ليش تحكي عن شيء ما تعرفه»؟ وبالفعل يصمت المتكلم ، والخجل يغطيه .

في «البادية» لا وجود «للنسبي» . «المطلق وحده هو الموجود» . والمطلق هو «العارِفَة» . والعارفة صامت ، غالباً . المتكلِّم هو المخطيء حتى ولو يعرف ما يقول . ففي فضاء الصحارى المتليء بالسكون ، مَنْ يسكت مرة ، يسكت كل مرة . وعندما يجيء الذي تَجَرَّأ على الكلام إلى المقهى ، من جديد ، لن يتكلم ، مرة أخرى .

وهو ما يفسِّر الصمت الثقيل الذي كان يسود فضاء ذلك

المقهى الكئيب ، ويملأ نفسي الصغيرة بالخوف . الخوف حتى من النهوض لكي أمشي .

مرعوباً ، كنتُ أخْتل لصق «صايل» مثل عصفور صغير تحت جناح نسر كبير . ويُدَلِّلني ، هو ، بأُبَّهَة : اشربْ . وأشرب سريعاً . أشرب الشاي الساخن الذي يحرق الجوف . لماذا؟ لأني لَقَطْتُ ، لَمْحاً ، عيون «ابراهيم» النارية تختلس النظر إليَّ من تحت أغطية أباريق الشاي التي يفوح بخارها ، وأزيزها غَلَيانها يدوّخ المكان .

كان «إبراهيم القَهْوَجي» سياسياً عتيقاً . وأهميته ، كلها ، تأتي من تاريخ غابر ، مبني على أعتبارات بلا وُثوق . تاريخ «أكل عليه الدهر وشرب» ، كما يقولون . وقد أحسنوا قولاً .

لكن البدو الآتين من أعماق الصحراء ، مثلي ، لا يعترفون إلا «بالحكماء» ، وأهل التجربة ، حتى أولئك الذين تخَلَّت الحكمة عنهم ، أو الذين لم يعد لهم علاقة بما يحدث الآن . فالقِدَم يجعلهم «عِتاقاً» كالخيول الأصيلة . وأصحابي يبحثون عن «الجذور» ، حتى ولو يابسة ، لا عن الفروع الرطيبة وإن كانت أطْيَب مأكلاً . ماذا أفعل ، إذن ، غير أن أشرب الشاي صامتاً ، هذا النهار ، في «قونية» ، أيضاً؟

صاحب دكان الشاي في قونية ، المبلل بسيلانات الماء ، الذي لا يكف عن غَسْل الأقداح وتنشيفها ، مثل ذاك القديم ، سيراني ، من تحت نظارتيه ، ابتسم ، عاضّاً شفتيَّ . وسيحدِّق باستغراب شديد في وجهي . أيكون اعتقد أنني أسخر منه؟

ولِمَ لا؟ وهامته تشبه هامة بومة هرمة . لكنني ابتلَعْتُ ابتسامي على الفور ، ولَقَفْتُ كأس الشاي ، وصرتُ أحسو ، بهدوء ، منه .

كان الشاي ساخناً جداً ، لكن بَرْد الأناضول يحتمل حتى النار . كان دكان «قونية» مُرقَّعاً بالصفيح . وكنت أجلس ، مقابل الباب ، في المقعد الوحيد الخالي . أقعد مُلْتَمّاً ، حاضناً نفسي ، راجياً ألاّ يدخل أحد . لأن مجرد فتح الباب الهزيل سيجعل الريح الصقيعية المتجَمِّدة تملأ المكان . وستعبر جسدي المنهزم من البرد كما يعبر السكين لَحْم الغزال .

ومنذ أن هدأ الجو ، واستأْنَسْتُ دفأً ، سألته باحترام باذخ عن اسمه (منتظراً اسم ذاك) .

ترك غسْل الأقداح ، ونفض يديه من الماء ، ومسحهما بطرف هدْمه ، مثل القديم تماماً ، قبل أن ينظر في وجهي متسائلاً : اسمي؟ كان لا يفهم ، ولا بد ، ضرورة سؤالي عن اسمه . لكنني أجبتُ باصرار مؤدَّب : نعم ، اسمك . قال وهو يهز هامته العُظمى : اسمي «علي عُصْمان» . قلتُ شكراً . لكنه استدار ، دون أن يسمع ماقلت ، أو يأبه به .

لقد بدا «شكري» ، مثل «سؤالي» بلا أهمية .

كنت أحب أن يقول لي : اسمي «ابراهيم . .» . لكن الحياة لا تحوي مثائل ، أبداً . وإنْ صدف وعثرنا على الكثير من الأشباه فيها ، فلأننا نحن الذين نراها هكذا .

في الحقيقة ، ليس للكائن مثيل .

أمكنة بلا علامات

أدور حول متحف مولانا من الجهة الأخرى ، فاكتشف عالماً آخر . لكأن الدنيا تغيَّرَتْ ، فجأة ، عليَّ . أبنية جميلة ومتناسقة . شوارع ضيقة لكنها نظيفة . ساحات وفضاءات مترعة بالفن والإبداع ، تحيط بها دور قديمة الطراز لكنها عريقة . فضاء جديد على بُعْد خطوات من الفضاء الذي أقيم فيه؟ فضاء يجذب النظر ، ويتلاعب بالقلب . أقف حائراً : إلى أين يجب أن أتوَجَّه الآن؟

في الأناضول أنت لا تعرف مَنْ أنت ، لكنك لا تجهله أيضاً . شيء كثير من التاريخ ممزوج بتباريح لا مندوحة عنها ، في مثل هذه الحال . أتصوّر أن الكائن الذي لا يصل إلى مرحلة الشك في كينونته لن يتوصل ، أبداً ، إلى تحديد موقعه في الوجود .

لكن ذلك ليس منهجاً بقدر ما هو عزاء . عزاء داخلي عن فشل عميق في الحياة . لأننا ، فيما بعد ، سنصير نفتعل ما كان علينا أن نفعله ، في البدء ، ببساطة . إنها «مرحلة التعويض» في الحياة . في حياة فشلَتْ منذ البداية . لكن هذا

الفشل المرسوم فوق جبهتها هو ، بحد ذاته ، محرّكها الأهم للوصول إلى أبعد نقطة فيها .

إلى أين ، إذن؟

أمشي منبسطاً مثل عباءة صوفيّ دَوّار تخلّى عنها ، أو سيتخلّى قريباً عنها ، ليتحوّل من الطور الأسود في الوجود إلى الطور الأبيض : طور الطيران البديع للوصول إلى الحقيقة . حقيقة الحركة المنسجمة مثل لحن جميل . هذه الحركة المتَغَلْغِلَة في الروح التي يتشرّبها الجسد الدائخ بالموسيقي ، هي ، وحدها ، التي قد تُقارب جوهر الوجود . إنها أسمى مظاهر التعبير عنه ، عن هذا الوجود اللامحسوس ، المناقض لما يبدو في عيون المشاهدين البليدة .

ها هو ذا الدرويش يدور . من أسفل إلى أعلى ، من قدمه إلى قمة الشوق . هو يدور بلا صوت . الحركة الدائرية المستمرة هي التي تُرسِل أصواتها المُسْتَتِرة مثل أشعة لا مرئية ، تتكاثف حول عقِبَيْه . حتى لنكاد نسمع صراخه الداخلي ، مثل صراخ غول مغدور .

المدهش أنهم يرقصون هكذا ساعات دون توتر أو لُهاث . دون تشنّج أوآهات . يرقصون صامتين ، لكن منشغلين بما هو أسمى : محاولة الاتصال مع المعشوق الغائب . لكأنهم ، عَبْر صمتهم ، يكلّمون الله . فالصمت هو العلامة الأوْضح ، والأصْدق (القول كذّاب) . وما يتراءى لنا أنه لا يمكن أن يروي

غليلهم إلا اتحادُهم بمثلهم الأعلى . ولكن ، من أية بؤرة مضيئة سينفذون؟

المعشوق الذي زعموا أنه فرّ إلى «حَلَب» ، لم يكن ، في الحقيقة ، هناك . كان في الجُبّ . معشوق «صامت» ، يقتضي عشيقاً صامتاً ، أيضاً . هو في الجُبّ ، وعلى العاشق أن يبحث عنه في المكان الذي لا يتواجد فيه : في الأعلى . لأن ما يسقط في الحضيض لا يخص «الحبيب» . إنه الجسد الفاني الذي لم يعد قادراً على الطيران . أقصد : الدَوَران .

الدرويش الدوّار يبحث ، مثل «مولانا» ، إذن ، عن إلْفٍ وَلّى ، وعن حبيب تناهى إلى سمعه أنه «غاب» . لكأنه لم يكن يعلم ، أو هو لا يريد أن يعلم ، أنهم أَلْقوه في غيابة «الجب» . لماذا؟ لأن العلم ، في هذه الحالة ، هو الصَكُّ ، هو الطريق المسدود الذي لا يُؤدّي إلا إلى العدم . لذا سيظل يبحث عنه عَبْر دورانه اللامتناهي ، في فضاء مفتوح ، تُحَرِّضه طاقة الشَكّ الذي استَوْلَده من الحقيقة .

ولكن ، يبحث عنه أين؟ وهل للأمكنة التي تأوي الأحبة علامات؟

إنه يدور في مكانه ، لأنْ لا حاجة به لكي يقطع المسافات ، من أجل لقاء سيتمّ في القلب . والقلب هنا ، وليس في أي بؤرة أُخرى . ما عليه ، إذن ، إلا أن يدور ، ويدور ، حتى يستقر في جوهر الروح . روحه هو . سيبدأ ، آنذاك ، فقط ، يرى

الحبيب الذي غاب . يراه داخل عينيه المغمضتين . عينيه هو بالذات . هكذا ، لن يستطيع أحد بعد اليوم قَتْله .

هذا هو ، تماماً ، ما بحث عنه ، وخطط له ، مولانا جلال الدين الرومي ، مؤسس المولَوية التي عَمّت الشرق ، كله ، في فترة من الفترات . ونحن ، اليوم ، نجيئها باحثين في دَوَرانها ، وهذيان حركتهاالاسطوانية ، عن عزاء محتمل لبؤس أرواحنا التي تكَدَّستْ مثل الجِيَف في أجسادنا .

حُبّ النقيض

مَنْ هو «شمس التبريزي» الذي جعل «جلال الدين الرومي» يخرُّ مغشيّاً عليه من الذهول؟ أوَليس هو نقيضه الذي أراد أن يجعله يرى «حاله» الحقيقية المغايرة لحالته الواقعية؟ لِمَ «اسْتَهْوَل» الرومي هذه الحادثة العارضة ، وشَحَنَها بطاقة روحه ، كلها ، في الحين ، مع أنه صنع منها ، فيما بعد ، «ملحمة» كونية؟ أوَليس هكذا تَخْتَرع الكائنات العظمى أساطيرها؟ وإلا كيف سيحقُّ لها أن تعممها ، من بعد ، على الملأ؟

مع ذلك ، سنظل نتساءل : كيف يمكن لنا أن نفهم التقاء النقيضين؟ وإذا كان الكلام وسيلة للتواصل ، كيف يتحوّل ، أحياناً ، إلى محرِّض قوي للفعل؟ إذا كان أغلبنا يخضع بعفوية وسذاجة للشروط والمظاهر الإجتماعية ، لماذا يتمرّد بعضنا الآخر عليها ، ويشذّ عن القاعدة؟ ألأن القاعدة قد صيغتْ ، أصلاً ، ليتمكّن الكائن من تحطيمها؟ أخيراً ، عندما يلتقي نقيضان ، تاريخيّاً ، بأية وسيلة ، وكيف ، نستطيع تمييز أحدهما عن الآخر؟ وهل ذلك ضروري ، هذا إذا افترضناه ممكناً؟

لوكان «شمس الدين التبريزي» عالِماً لأختلف الأمر ، ربما .

ولو كان غير عالِم ، ويبدو في هيئة العلماء ، لما كان للمسألة أهمية كبيرة ، أيضاً . فمولانا جلال الدين عالِم . وهو ابن «سلطان العلماء» . ولقد كان ، من هذا المنظور ، في موقع قوة بالنسبة إلى الخلق الذين يتعرضون له . إضافة إلى ذلك ، كانت له سلطة تعليمية لا تُنْكَر ، يومذاك . لكن اللقاء تم بين «نقيضين» مظهراً ، وبالتأكيد ، مَخْبَراً ، أيضاً . وهو ما أضاف على هذا اللقاء أبْعاده المأساوية التي تحوَّلَت ، فيما بعد ، إلى أسطورية .

شمس الدين التبريزي «قَلَنْدَري» . أي أنه كان يبدو درويشاً من عامة الدراويش كما يتراءى ، في الظاهر ، لأهل قونية . لكنه ، في الحقيقة ،«كائن آخر» . هذا الكائن الخبيء هو الذي استَخْرَجه من ذاته ، ليقدمه ، في لقائه المخطط له بذكاء ، كما أتصوّر ، لجلال الدين الرومي .

إنه (التبريزي) كائن يخبّيء كائناً آخر غير «القَلَنْدري» الذي يبدو عليه . وهو لا يرمي بالسؤال كما يرمي الصيّاد الساذج شِباك صيده دون تخطيط . فهو لا يصيد الأسماك وإنما القلوب . إنه صَيّاد تاريخيّ ماهر لا يرمي بسهمه المسموم نحو فريسته ، إلاّ عندما أن تصير ، بعد انتظار طويل ، في متناول «الصَيْد» . وهو ، لشدّة حِنْكَته ، لا ينتظر أن تقع الفريسة بين يديه ، عِبْئاً ، وإنما يريدها مطروحة على القاع بانتظار أن يقرِّر ، هو ، ما سيفعل بـ «جثتها» .

إنه يتصرّف بكلامه دون أن يبحث عن َجدَل ، أو مماحكة . يلقي بسؤاله ، ويمشي . لا يكاد ينتظر حتى الجواب . وما أهمية جواب يصدر عن معلِّم صبيان يمشون وراءه كالخراف؟ لكنه بفراسته ، فراسة القلندري الذي خَبِر العالم ، كان يحدس ، ولا بد ، بعض مزايا «معلم الصبيان» هذا . ولذا اختاره من بين الحشود . حشود قونية التي كانت تتراكم في سهولها .

لكن «مولانا» لم يكن معلماً فحسب ، كان خبيراً بالحياة ، وأكاد أقول والتشرّد ، أيضاً . فمن «بَلَخْ» في أفغانستان الحالية ، إلى «حَلَب» ، و«دمشق» ، وبلدان ، ومدن ، أخرى . وأخيراً ، إلى «الأناضول» التي لجأ إليها ، مع عائلته ، هرباً من المغول الذين لحقوا به ، في النهاية .

إنه ، هو الآخر ، خبير بالحياة وجَدْواها الملتبسة . لكن نقيضه ، شمس التبريزي ، أكثر منه خبرة . له طريقة «عبثية» ظاهرياً ، ومختلفة عن حياة مولانا ، إلا أنها ذات بُعْد استراتيجيّ . لقد أدرك ، بشكل من الأشكال ، أنه :«لا يقتل جَدْوى الحياة ، إلاّ مفهوم الجدْوى» . أو هذا ، هو ، على الأقل ، الشكل المعرفيّ الذي يوحي به تصرّفه ، حسبما نفهم من تعامله مع «الرومي» . ويكاد يؤكِّده «الفضاء الثقافيّ» الذي تعايشا فيه ، واتفقا على إدامته .

كان من الطبيعي ، في هذه الحال ، أن يتمادى «الرومي» في عشقه . في عشق «شمس» حتى الفناء . لكأن جلال

الدين الرومي «اخترع» نقيضه، ليمنحه كل الحب الذي يستحقُّه النقيض. أوَليس الإنسان، بشكل من الأشكال، نقيضاً لذاته؟

وهل نحبُّ إلا نُقَضاءنا؟

وعندما بدأ «الرومي» بتخريب حياته المهنية، والعائلية، تفانياً في «العشق»، أثار بذلك حقد أهله، وتلامذته، عليه. وبسبب انشغافه «بالنقيض» الذي صار يجسِّد الوجود، عنده، أخذ الوضع يسوء أكثر. لكنه لم يكن يعلم أن الأمور قد تذهب إلى أبعد من ذلك، وأخطر منه بكثير.

ذلك «التجاهل العَمْد»، ربما، هو الذي دفع ابنه للمشاركة في قتل «المعشوق» وإلقائه في غيابة الجب. والايحاء له، لمولانا جلال الدين الرومي، بأن «التبريزي» ذهب إلى حلب، وربما إلى دمشق.

استنجد الرومي بمعارفه وخواصه هناك للعثور عليه، عبثاً. لقد كان في باطن القاع، بالقرب من مسكنه، في «جُبّ قونية» الأليم.

لا بد أن «إلقاءه في غيابة الجب» كان يعبِّر عن رغبة عميقة، لدى مَنْ فعلوا ذلك. رغبة حمقاء في «عودة الحياة إلى مجراها» القديم.

لكن الحياة، و لحسن الحظ، لا تعرف المثائل، ولا الشعور بالذنب، ولا مكان للأسف لديها، ولا تهتم بما يهتم به البشر،

ولا تعود إلى الوراء . فمنذ أن يحدث الفعل يصبح غير قابل للتراجع .

ذلك هو ، تماماً ، معنى أن التاريخ لايتكرر . لا يُكرّر نفسه . لايعود إلى الوراء ، أبداً . إذْ لا يمكن لما حدَثَ من قبل ، أن يحدث هو ذاته ، من جديد .

الحماقة ، وحدها ، إذن ، يمكن أن تُزيِّن لنا هذه «العودة اللاممكنة» . وتوهمنا بأنها قد تكون «احتمالاً ممكناً» ، وإنْ كان من المستحيل انتظار حدوثه ، ذات يوم .

الحقيقة ، هي أن الطبيعة البشرية لم تناضل ، منذ البدء ، إلا ضد وضعها البائس . وهي ، بطبيعتها ، منذ أن تعي هذا الوضع ستحاول الخلاص منه ، حتى ولو كان في «اصرارها» ، على الخلاص مما لا تحب ، فناؤها .

لكن الكارثة تحدث عندما «نخطيء الهدف» . وهو ، تماماً ، ما فعَلَتْه «الشلّة» التي كانت تحيط بمولانا .

فاندَفَنَتْ هي تحت غُبار التاريخ ، وشَعَّ هو ومعشوقه

غولْ بَهْجَهْ جي

هذا المساء ، أُحاول أن أَلْتَقِط الزمن من منظور آخر . والمكان كذلك . في زحمة الحجيج يبدو الزائر مأخوذاً بزخم عواطف الناس ، وتوافدهم اللامنقطع ، وارتجاجاتهم المتلاحقة مثل سحائب المطر . بشر يتواردون بحميّة ظاهرة مثل الإبل الظمأى على حوض ماء ضيّق في سهول «الجزيرة» . إبِلٌ كنتُ أتبعها من بعيد متأمِّلاً عَراقيبها النافرة مثل الحبال .

الآن ، هذا المساء ، صار المكان أكثر رحابة ، وأعمق أثراً . يكشف لك عن مزاياه بلا وسيط . ولم يعد يقف بينك وبينه أحد . إنه في وجهك مثل بثرة تحت جفنيك . يكفي أن تتأمّل المكان لتدرك جوهر الحياة المختبئة في أعماقه . وأين يمكن للحياة أن تختبيء إنْ لَمْ يكن في الأمكنة التي تأويها؟

إنه أمامك مثل الماء النقي جاهزاً للشرب ، أو للابتعاد عنه ، إذا أحببت . لكنني واثق من أنك ظاميء ، وستشرب كثيراً بعينيك الذاهلتين . تشرب الطفولة أو بعضاً منها . تشرب الأهل أو بعض آثارهم . وإلا لِمَ تراني أراك تنظر إلى «هذا» العالم وكأنك انخَلَعْتَ منه للتَوّ؟ ماذا تريد أكثر من ذلك ، أو

أقلّ ، أيها الأحمق؟

وقبل أن يتَخَلَّق ارتكاس الإجابة في ذهني ، أصل إلى مطعم «غُلْ بَهْجَهْ جي» الشهير ، الواقع خلف التكية ، باللصق من متحف «مولانا» ، مباشرة . ويسحبني مِنْ نفسي صوت الناي الذي لا يتوقف عن العزف فيه . وأسمعني أردد مع «أبو يزيد البسطامي» : «السائل أعلم من المسئول» . لماذا هذه النفحة اللا أدرية إذن؟

أريد أن أعود إلى «مولانا» . إلى «شمس التبريزي» حبيبه ، ومقتل هذا الأخير . إلى حزن مولانا الذي لا علاج له عليه ، وكتابته لـ«مثنوي» ، ولـ «فيه ما فيه» . أريد أن أقبض على الحياة المخيفة التي كانت تبتلي الكائنات بأرزائها جاعلة منهم ، أحياناً ، سلاطين ، وأحياناً أئمّة ، أو مجانين .

مَنْ قال إنها لم تعد كذلك اليوم؟ إنها كذلك ، دون شك . لكنني ، الآن ، أراها عن كثب . لا استوعب ، بعد ، فجائعيتها . لا أعطيها ما تستحق من الأهمية . وأكاد ألاّ أرى ، بوضوح ، مصيري بين المصائر الأخرى ، ولا أستوعب كيف يمكن لي أن أفرّق بيننا .

العبرة ، كما صرت أدرك ، الآن ، ليست في الحاضر الذي يُعْمينا ، إذن ، وإنما في التاريخ الذي صرنا نحيط بكثير من خفاياه . التاريخ الذي يسمح لنا بالمقارنة والاستِقْراء .

لولا التاريخ لكانت الإنسانية عَمْياء .

كان اسمها «إيكونْيومْ»

تقول الاسطورة : إنها أول مدينة أُنشئَتْ بعد الطوفان .

أول مَعْمَر بُنِيَ بعد أن رَسَتْ سفينة نوح على قمم جبال «أراراتْ» ، في أعالي «الأناضول» الخالد . وهي بكل الأحوال مدينة مقدسة . إليها يحج الناس كل عام من مختلف بقاع الأرض .

هي عاصمة الدراويش الدَوّارين الذين يَنْسون أرواحهم في ثناياها . تقع في قلب سُهوب الأناضول ذات الانبساط اللامحدود ، والهيئات الأرضية الأخّاذة .

الأناضول سهوب لا محدودة ، نصف قاحلة ، وعصيّة على الترويض . تَتَرَبَّع فوق هضبة قارية عملاقة تعلو فوق سطح البحر بحوالي ١١٠٠م . تحدها من الشمال سلسلة جبال «البونتيك» ، ومن الجنوب سلسلة جبال «طوروس» الهائلة . وفي قلب هذه المعمعة الأرضية الهائلة تقع جوهرة «الكابادوس» ، حيث تمتد إلى ما لا نهاية سهوبُ الأناضول الوسطى المثيرة للقلق من شدة غناها وجمالها .

هذا الجزء الأوسط من الأناضول الذي تقع في قلبه

«قونية» ، هو مركز تقاطع الحضارات وتلاقحها . فالشرق والغرب يمتزجان فوق أرضه منذ آلاف السنين . ويمثّله ، أحسن تمثيل ، رمزه التاريخي : «العقاب ذو الرأسين» الذي يعود إلى «الحثّيين» الأوائل الذين استوطنوه منذ الألف الثالث قبل الميلاد . ويشهد على قِدَم حضارات الأناضول المتعددة المصادر والإثنيّات ، آثار مدينة «كاتالْ هويوكْ» التي تعود إلى الألف الثامن قبل الميلاد ، وصولاً إلى كنائس «كابادوسْ» البيزنطية العجيبة ، المحفورة في الصخر في القرن الرابع للميلاد .

«قونية» خضعَتْ ، مثل غيرها ، للرومان منذ ١٣٣ق ـ م . فيها أقام «سانْ بولْ» أو «القديس بولس» ، حوالي سنة ٥٠ب - م . وقد زارها كذلك «ابن بطوطة» ، وعرّج على «زاوية الفتيان» المسمّاة بـ«الأخيّة» . ووصف ، كما هي عادته في السفر ، فضاءها ، ودراويشها ، وشيخها .

على مدى التاريخ ، تعاقبَتْ على هذه المدينة ، مثل بقية السهوب الأناضولية التي تجذب الغزاة مثل ذُباب حول عَسَل مبذول ، حُقُب كثيرة وممالك . فقد مَرَّ عليها ، كما سلف وقيل : بيزنطة ، السلاجقة ، المغول ، الصليبيون ، وغيرهم كثير ، ولا بد .

خلال قرنين ستمتليء «إيكونْيومْ» (أو قونية) بالجوامع والمدارس ، والتُرَب ، والقصور . وفي القرن الثالث عشر الميلادي ، خلال الغزو المغولي لها ، وهي الفترة التي عاش فيها

جلال الدين الرومي ، ستنشأ فيها حلقة الدراويش الدوّارين التي ستعمُّ الأناضول ، وسوريا ، ومصر بعد ذلك .

مؤسس حلقات هذا الرقص «الغَيْبيّ» ، «الترانسيداليّ» ، الذي انطلق من «قونية» ، كمانعرف : هو مولانا «جلال الدين الرومي» . وقد استبدعه بعد أن التقى فيها بـ«معلّمه» ، و«مريده» : «شمس الدين التبريزي» ، الدرويش القَلَنْدَري الذي سيكون «شهيد الحب البشري» . وهو الذي سيحوّل الرومي عن منهج حياته الأولى ، منهج معلِّم الفِتْيَة والصبيان ، إلى مَنْ صار إليه فيما بعد . وقد دفع حياته ثمناً لذلك .

بعد قتله ، قتل حبيبه «شمس» ، سيلجأ مولانا جلال الدين ، من فرط الوجد والتَعالي اللذَيْن ألَـمّا به ، إلى فضاء الرقص الدَوّار والموسيقى ، لفهم معجزة العشق ، والتقَرّب من الله .

الرحيل عن «قونية»

سأترك «قونية» ظُهْراً .

في رأسي تجول جملة «مولانا» : «الصمتُ بحر ، والقول جدول» . لفترة طويلة سأظل صامتاً مثل جدار بلا نوافذ . لكن الفضاء الذي يمر بي هو الذي سيبدأ بالكلام . هو الذي سيملأ فمي بالقول . أنظرُ ، وتبدأ يدي «بالدوران» : جبال أخّاذة الجَمال ، تدور حولي مثل رباط أزليّ . تناديني ، ولا أستطيع أن أطير . جبال قممها مكللة بالثلوج ، تذكّرني بـ «جبل الشيخ» في غرب الشام . الجبل الذي امتلأت به عيوني فتيّاً ، وصار على الرؤية ، من بعد ، عَصيّاً .

جبال بلا حدود تحيط بقونية . لكأنها تحرسها من عيون العابرين . والعابرون كُثُر . سأتجاهل مرأى المدائن الحديثة المتناثرة بسخاء حولها ، مثل أورام قبيحة فوق جسد جميل . لكن «الحداثة البذيئة» لها أسبابها وأوهامها ، أيضاً .

بؤر سكانية اسمنتية الطراز ، بشعة الألوان ، تتكاثر حول «قونية» التاريخية كالفطر البري الذي لا يُقاوَم نموُّه . عسى ألاّ

تخنقها ذات يوم! «فطر خبيث» هذه المدائن الجديدة التي لا علاقة لها بالتاريخ . لا بتاريخ المدينة ، ولا بتاريخ العالم . ومع ذلك تتكاثر الحفريات في فضاء قونية الجميل المترع بالإشارات ، من أجل إنشاءات جديدة أكثر قبحاً ولابد . فليَحْمِها الله ، قونية .

عندما ترحل عن «قونية» يحتضنك الأناضول . والأناضول جبال وثلوج وغيوم . سهول برية شاسعة لا تحدّها حدود . يبدو ضوء شمسها فاتراً كالحديد . ضوء لا حرارة فيه ، ولا نور واضح ، بل غمام معمم ومقيم .

الأناضول ! «شهوة» الغزاة والفاتحين .

أرض ، تاريخها مرتبط بتاريخ المعرفة والأديان التوحيدية الثلاث . ومن قبلها ، أَمَدَّت الأساطير ، واستمَدَّتْ منها رُؤاها ، وأماثيلها . إنه المكان الذي اعتصمت فيه سفينة «نوح» . أعبر الآن فضاءه بهدوء وتمعّن ، وكأنني أعبر بطن أمي .

أستعيد في رأسي الغارق في اشراقاته معنى «الولادة من التاريخ» ، لا الولادة فيه . ولادة الكائن الذي كاد أن يضل الطريق ، والطريق منبسطة أمامه . ولكن ما معنى الولادة ، أصلاً ، إنْ لَمْ يكن هو الالتقاء بالذات بعد أن أغرقَتْها رُكامات الحياة؟ الحياة المبتذلة التي حجبَتْ رؤية «حقيقتنا» عنا . ومَنْ بمقدوره أن يعيدنا إليها ، إلى «ذاتنا التي أنكرناها» ،أو بمعنى آخر ، أن يعيد «وعينا النقديّ» إلينا ، غير المكان التي تأسْطرَتْ

ذاتنا في أكنافه ، حتى وإنْ كنا عنه بعيدين؟

سُهوب وأساطير .

رِياح وميتولوجيا .

شُموس عظيمة رضعَتْها هذه السهوب ، منذ الأزل ، وهي الآن ترُدّها إلينا بلا تَقْتير . أية روعة تدغدغ بها النفسَ هذه الأرضُ المستلقيةُ برصانة وإغراء ، مثل امرأة جميلة تدرك فتنة جسدها على الآخر؟

أوه! أيتها الأرض الشرقية المحرِّضة للخيال ، ما أبدع فساحتك التي حلم بها أبي ذات يوم . ولكن ، لِمَ كان يحلم بكِ وهو ابن بادية الشام؟ ابن الصحراء العربية الكبرى التي كانت تدفع الآخرين إلى أن يحلموا بها .

أيكون لذلك علاقة بالأساطير الأناضولية؟ بجلال الدين الرومي ، وبحبه الذي لا يهدأ لشمس الدين التبريزي؟ أم أن لذلك أسباباً أخرى؟ أسباب لا يمكن أن يدركها مَنْ هو غريب عنها .

ومهما يكن السبب فأنا ، اليوم ، سعيد . سعيد لأنني أعبركِ .

والسعادة هي : لحظةُ عُبور . عبورٌ مثل هذا الذي أعيشه الآن . و«العبور الدائم»! ذلك ، هو سر سعادة الكائنات التي ألْهَمَها الله نعمة السفر .

فمَنْ لا يعرف كيف يعبر ، لا يعرف كيف يقيم

حكاية أمي

عندما كنت صغيراً ، كانت أمي تحكي لي قبل أن أنام (تصوّروا!) عن الفتى الذي جاء إلى أمه ، ، ذات يوم ، حزيناً . وقبل أن تحاول معرفة حزنه ، اشتكى لها :«أماه! صرت أخجل من حياتي ، قال . ولماذا يا بني ، سألت الأم المسكينة وحيدها . لأنني ، على عكس أقراني ، لا أعرف حكاية لأحكيها لهم ، وأكثرهم لا يتوقف عن قص الحكايات المثيرة التي عاشها ، قال» .

«أتريد أن تكون مثلهم ، لك حكاياتك التي ترويها ، وتجعل الآخرين يستمعون إليك وأنت تحكي؟ سألته . بلى ، قال . إذن ، أخرج من البيت ، سافر» . أمَرَتْه .

ولما رأتْ دهشته من جوابها ، أضافتْ بحزْم : «ما دمت مقيماً لن تكون لك حكاية» .

على الفور ، دفعته خارجاً في ظلام الليل البهيم الذي كان يحيط بالمنازل . أرعبتْه الظلمة . أراد أن يعود إلى «حضن أمه» . لكنها أغلقت الباب في وجهه ، وتجاهلت رجاءه ، وهي على حافة البكاء .

كانت تعرف أنها إما أن تجعل منه كائناً يعرف كيف يحكي ، وله تاريخه الخاص ، أو أنها ستفقده إلى الأبد . ستفقده بسبب البلاهة والاحباط الملازمين للإقامة والركود .

ولو كانت أمه «تقرأ الحكايات سِماعاً» مثل أمي ، لأعادت على مسمع ابنها ، ولو بكلمات أخرى ، قول «أبو تمام» : وطول مقام المرء في الحَيّ مُخْلِق / لديباجَتَيْه فاغْتَرِبْ تَتَجدَّدِ .

اضطر الفتى أن يبدأ السفر ليلاً .

في طريقه الطويل الذي سيمشيه ستعترضه المشاكل وحلولها ، والمصاعب وضرورة تخطيها ، و . .و . .وسيروي ، فيما بعد ، لأناس لا يعرفونه ، ما مرَّ به من أهوال ومشقّات ، وكيف تغلّب عليها ، وتخطّاها .

سيروي ، ويروي ، وهو يَلْمَسُ شَعْرَه الذي ابيَضَّ من كَثْرَة ما لاقى على طريقه من أهوال . يحكي لهم ، وهم يستمعون إليه بذهول . ومن آن لآخر ، يتذكّر أمه ، وهو يكاد أن يبكي ، قائلاً بأسف : « . . . ولم أجد الوقت حتى لأروي لأمي بعض ما عانَيْت» .

وكانت أمه قد ماتت ، منذ أمد طويل ، وهي تبتسم متخيلة نفسها تستمع إلى حكاياته التي ظَلَّتْ تتصوّرها تدور حول حبّه لها .

العودة إلى« أنقرة »

أينما نظرت َترَ الثلوج تغطي هضاب الأناضول . تذكرك ببرده الذي لا يُقاوَم . ونحن نخترق البساط الأناضولي الشاسع ، سيملأ صمت عميق نفوسنا التي أذهلها دهاء التاريخ ، و شراسته . ولن يلطِّف من هذا الافتتان إلا المنظر البَرّي الذي سيعلن باستمرار عن تقَلُّباته ، وعن ضراوته .

في طريق العودة ، كلما اقتربنا من «أنقرة» ، تتكتّل الأرض بعد أن كانت منبسطة . تضيق بعد أن كانت فسيحة . تتهَضَّب بعد أن كانت سُهوباً . وما أن نقطع تلك المساحات العُظْمى التي تحيط بقونية التاريخية حتى نبدأ بمواجهة هضاب وأقاليم . نمرُّ بمعالم أرضية تثير الدهشة كما تثير الحنين . لكأننا زرعنا أرواحنا هنا منذ قرون . ومَنْ يدري إن لم يكن الأمر كذلك حقا؟ وهو مايجعل الجسد يرتجف بعفوية خالصة .

حتى الغيم تحس به مقشعراً .

أفكِّر : لا يمكن للكائن أن يستعيد حياته التي «أضاعها في الحياة» . وما عليه ، في هذه الحال ، إلا أن ينصاع لصوت القلب ، وإهمال بقية الأصوات . وأحسني أريد أن أبكي في

طريق العودة إلى«أنقرة» ، مع أن الصباح كان جميلاً . ولربما كان ذلك بسبب هذا الجمال العميق الهادىء الذي ينبثق من بطن الأرض وكأنه القَدَر . وربما لسبب آخر ، أكثر أهمية ، حتى ولو لَمْ أعرفه .

وهل تهمّ الأسباب عندما تداهمنا الرغبة؟

لماذا عدتُ إلى «أنقرة» يوم العيد؟

لكأنني أريد أن أتخلّص من رمزية الأشياء . الاشياء كانت قبلنا ، وستبقى من بعدنا . هي ليست المعنية ، إذن ، بمقولة ضرورة التخلّص ، وإنما ما تمثله بالنسبة إلينا هذه الأشياء . ذلك هو الذي نريد التمرد عليه . لماذا؟ لأنه ، كثيراً ، مايكبّلنا بالقيود ، حتى أن التحرر منه يغدو ضرورياً . والسفر ، من وجهة النظر هذه ، إلى أماكن «مُكَبِّلة» مثل «قونية» أمر قد يكون ، أحياناً ، خطيراً .

اليوم عيد . الدنيا خالية . و«حلمي ستريت» شارع حديث وجميل يقع في أحدث أحياء أنقرة . إنه الشارع التجاري بامتيازي . أمشيه متمتّعاً بالوحدة والخلاء هذا الصباح : صباح العيد .

في بدايته أجلس في مقهي السَحْلَب الصغير . أطلب شراباً ، وماء . أتفرّج على الهدوء والخلاء الذين يملآن وجه الشارع الذي يشبه كثيراً شارع «الصالحية» الدمشقي ، أيام زمان .

أعـرف أن اليـوم هو «يوم عـيـد الأضـحى» . لم أُعـيِّـد على أحـد ، ولا أحـد عـيَّـد عليَّ . في أنقـرة تبـدو الكائنات مُـجَلَّلَة بجِلالين : جِلال التجَـهّم ، وجلال التحفّظ . وهم ، إضافة إلى ذلك ، يتوارون خلف لغة لا يحكيها الزائر إلا نادراً .

بعـد أن مـشـيتُ مـئـات الأمـتـار باتجاه حي «كـيـزيلايْ» الشـهـيـر ، ألجأني البـرد إلى البـحث عن مـقـهى جـديد . سريعـاً وجـدته : «كـافـيـه روسّـو» (المقـهى القـرمـزي) . فـيـه دخلت في الفخامة رأساً . وعلى الفور غطسْتُ في المقعـد المخملي الفاخـر ، وطلبت «الشـاي» الذي صـار طقسـاً في ذلك البـرد الأناضـولي القارس (والقارص ، هي التي تلائم المقام) .

بسـرعـة جـاءني مـا طلبت . وبدأت أتفـتّح داخل الجـوف الساخن لذلك المقـهى الرائع ، وأنا أحس بسعـادة بعيدة تغـمرني بهـدوء . مع ذلـك ، سـأكـون مـضطراً لتـرك هذا المكان الجـمـيل ، قريباً . سأتركه ، لا لشيء ، فقط ليبقى جميلاً .

فالديمومة تدمّر الجمال .

مقهى الحَمّالين

أكتب الكلمات الأخيرة في «مقهى الحَمّالين» الشعبي ، في أنقرة . ليست تلك هي المرة الأولى التي أجلس فيه . كثيراً ما كنت أتردد عليه طالباً الشاي الأحمر الغامق . شاي الجزيرة القديم الذي يقدمونه لك بكؤوس صغيرة مضمومة في الوسط ، ومزخرفة الحَواف . كؤوس «جَمْرية» تتردد وقتاً طويلاً قبل أن تمسكها بيديك ، وتقرِّبها من شفتيْك ، لشدة السخونة المتغلغلة فيها . هي وحدها قد تقاوم برد الأناضول . ولربما ، لهذه الميزة بالذات ، هي ، مرغوبة جداً في ذلك البرد المرهف واللاسع .

هذا المساء أريد أن أودِّع أصدقائي الذين أعرفهم جيداً ، ولا يعرفونني . أنظر خلسة إلى كلٍ منهم . أريد أن أتمعّن في خواصهم وهيكلاتهم . أحب أن أعود إلى مقاهي «الحسكة» العتيقة المبثوثة على «الخابور» . المقاهي المتراصفة مثل أعشاش طيور عملاقة . وكنتُ ، صغيراً ، محروماً منها .

يلعبون النرد والورق بحماسة شديدة غير آبهين بمشاعري وارتكاساتي .

أما أنا فأفكِّر : لكأن العالم لا حقيقة له ، ولا حقيقة فيه .

ولا يقوم على أي نوع من الحقائق «الكثيرة» التي تعذبنا . إنه ، في الواقع ، مجموعة من المشاعر والاستيهامات . فنحن لا نحس إلا بما يثير مشاعرنا . لكن ذلك لا يعني أن ما لا يثيرها في عداد العدم ، وإنْ كان ، بالنسبة إلينا ، كذلك ، تقريباً .

ولكن ، مَنْ نحن ، في النهاية ، لنقرر مصائر الأشياء؟

عليَّ أن أتمتَّع ، إذن ، بصداقة من «طرف واحد» ، على غرار «الحب من طرف واحد» . وذلك أصدق أنواع الحب ، بتصوّري . لأن «حُبّيْن لا يشكلان حُبّاً» بالضرورة . ولأن «الحب من طرف واحد» يكاد يكون منزّهاً عن «المنفعة» . إنه العاطفة الخالصة ، حتى ولو لم تجد رداً مناسباً لها . إنه نوع من الاكتفاء ، أو الإمتلاء ، بمجرد «حضور» الآخر ، حتى ولو بعيداً . لأن الإلتصاق معه ، أو الإتحاد به ، من منظور عاطفة كهذه ، أمر يكاد أن يكون «نافلاً» . ومع أن ذلك يبدو ضَرْباً من الهرطقة المشاعرية ، إلا أنه أقرب ما يكون إلى اعتباراتي العاطفية ، الآن .

أُنْظُرْ! (أخاطب نفسي بشيء من الاحتقار)

هؤلاء العتّالون المنغمسون في لعبهم بقوة تذهلني ، لا يتوقعون مني مشاعر خاصة . ولا يطلبون مني اهتماماً بهم . ولا ينتظرون مني عاطفة أو تقديراً . أنا الذي بحاجة إلى مثل هذه الاعتبارات «المخرّبة للذات» . إنني بحاجة إليها لأبرر جلستي بينهم ، وهم عني غافلون .

أيكون الكذب على الذات قادراً على التغلغل في النفس البشرية إلى هذا الحد ، إذن؟ إلى حد التَمْويه المغرض الذي يصعب على الكائن اكتشاف خباياه في الكثير من الأحيان .

وهل يهمّ الجواب ، بعد هذا؟

المهمّ هو أن نتمتّع بما نفعله . وأن نتوصّل ، ذات يوم ، إلى إنقاذ أنفسنا من الغرق في بلادة الحياة التي لا تنفكُّ تتراكم فوقنا .

الكلمات الأخيرة

أُغادر هذا المكان غداً!

أحس بالكآبة ، دائماً ، عندما أغادر المكان الذي حَلَلْتُ فيه . أكتشف اليوم أن المؤقَّت غير مرسوم في عقلي . ربما ، علَّمَتْني البادية هذا . عَلَّمَتْني نقيض ما كانت تفرضه علينا : الرحيل المستمر .

في صغري ، كنتُ أبكي كثيراً كلّما رَحَلْنا . وأشعر بالسعادة تغمرني عندما نحط الرحال في مكان جديد . في أيّ مكان . فالمكان هو أنا الذي أقيم فيه . ولأنني أقيم فيه فإن جزءاً مني ينْغرس ، يَنْحَقِن ، في بُنْيته . وسريعاً نصير واحداً .

ولا بد أن الشعر العربي في الجاهلية ، من حيث تَوْقه إلى الأطلال ، له علاقة بهذه النظرة التوحيدية بين المكان والكائن . فالتوحُّد ، في النهاية ، لا يمكن أن يكون بين الكائن وبين مَنْ ، وما ، هو أعلى منه . أوبين مَنْ ، وما ، هو ليس في متناول قدميه . وإنما بين الكائن والمكان الذي أقام ، أو يقيم ، فيه ، ولو عابراً .

وأياً كان الأمر فإنني ، اليوم ، حزين . حزين لأنني مضطر للرحيل .

وما يعطي الأمر بُعْداً مقلقاً هو أنني لا أحنّ إلى العودة إلى إي مكان ، وإنْ كنتُ بدأتُ أحب أن أُغادر هذا الذي أنا فيه ،الآن .

صرتُ أدرك أن «فعل عودتي» ليس أكثر من طريقة عملية لمتابعة الحياة . ما هي ارتباطاتي إذن ، في هذه الحال ؟ وبأي شكل يمكن لي أن أتجنَّب الإنهيار؟

أن أسافر ، من جديد .

خليل النعيمي:

طبيب جرّاح ، وروائي عربي سوري ، ورحّالة . يقيم ويعمل في باريس . صدرت له الأعمال الآتية :

روايـــات

ـ الرجل الذي يأكل نفسه

ـ الشـــــــيء

ـ الخُـلَعـــاء

ـ القطيـعـة

ـ تَفْريغ الكائــن

ـ دمشـــــق ٦٧

ـ مديـح الهرب

ـ لو وضعتم الشمس بين يديّ

وحـديثـاً ، رواية : قَـصّـاص الأثَر ، عن المؤسـسـة العـربيـة للدراسات .

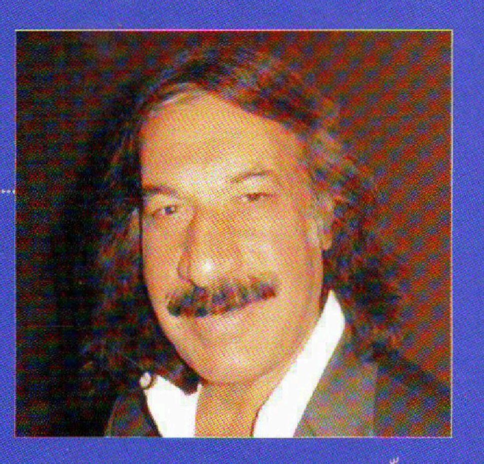
في أدب الرحلــة

ـ مخيَّلة الأمكنة

ـ كتـــاَب الهنـــد

ـ قراءة العالَــــم

الطريق إلى قونية



شمس الدين التبريزي «قَلَندَري»، أي إنّه كان يبدو درويشًا من عامّة الدراويش كما يتراءى، في الظاهر، لأهل قونية. لكنّه، في الحقيقة، «كائن آخر». هذا الكائن الخبيء هو الّذي استخرجه من ذاته ليقدّمه، في لقائه المخطّط له بذكاء كما أتصوّر، مع جلال الدين الروميّ.

إنّه (التبريزيّ) كائن آخر غير «القلندَريّ» الّذي يبدو عليه. وهو لا يرمي بالسؤال كما يرمي الصيّاد الساذج بشباك صيده دون تخطيط، فهو لا يصد الأسماك وإنّما القلوب. إنّه صيّاد تاريخيّ ماهر لا يرمي بسهمه المسموم نحو فريسته إلّا عندما تصير، بعد انتظار طويل، في متناول «الصيد». وهو، لشدّة حبكته، لا ينتظر أن تقع الفريسة بين يديه عِبئًا، وإنّهما يريدها مطروحة على القاع بانتظار أن يقرّر هو ما سيفعل بـ«جثّتها».

إنّه يتصرّف بكلامه دون أن يبحث عن جدل أو مماحكة. يلقي بسؤاله ويمشي. لا يكاد ينتظر حتّى الجواب، وما أهمّيّة جواب يصدر عن معلّم صبيان (الروميّ) يمشون وراءه كالخراف؟ لكنّه بفراسته، فراسة القلندريّ الّذي خبر العالم، كان يحدس ولا بدّ ببعض مزايا معلّم الصبيان هذا، ولذا اختاره من بين الحشود، حشود قونية الّتي كانت تتراكم في سهولها.

لكنّ «مولانا» لم يكن معلّمًا وحسب، بل كان خبيرًا بالحياة، وأكاد أقول: والتشرّد، أيضًا، فمن بلخ في أفغانستان، إلى حلب ودمشق وبلدان عديدة أخرى، وأخيرا إلى الأناضول الّتي لجأ إليها مع عائلته هربًا من المغول الّذين لحقوا به في النهاية.

إنّه، هو الآخر، خبير بالحياة وجدواها الملتبسة. لكنّ نقيضه (شمس التبريزيّ) أكثر منه خبرةً. له طريقة «عبثيّة» ظاهريًا، ومختلفة عن حياة مولانا، إلّا أنّها ذات بعد استراتيجيّ. لقد أدرك، بشكل من الأشكال، أنّه «لا يقتل جدوى الحياة إلّا مفهوم الجدوى»، أو هذا هو، على الأقلّ، الشكل المعرفيّ الّذي يوحي به تصرّفه.

كان من الطبيعيّ، في هذه الحال، أن يتمادى الروميّ في عشقه، في عشق «شمس» حتّى الفناء. لكأنّ جلال الدين الروميّ «اخترع» نقيضه ليمنحه كل الحبّ الّذي يستحقّه النقيض.


ISBN 978-614-419-589-5

